

سُورَةُ الرُّومِ

حين تتقلب موازين الأرض ويبقى وعدُ الله حقاً

رحلة في صراع الحضارات ، وآيات الأنفس والآفاق ،
وميلاد اليقين من رَحِمِ الهزيمة

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي

سُورَةُ الرُّومِ

حين نَتَقَلَّبُ موازِينُ الأرضِ وَيَبْقَى وَعْدُ اللَّهِ حَقًّا

رحلةٌ في صراع الحضارات، وآيات الأنفس والآفاق، وميلاد اليقين من رَحِمِ الهزيمة

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة منهجية

السورة التي تعيد ترتيب ميزان النظر

ليست سورة الروم خبراً تاريخياً عن إمبراطورية هُزمت ثم نهضت، ولا سبجلاً سياسياً يتابع انتقال الغلبة بين فارس والروم؛ إنها سورة تُعلِّم الإنسان كيف يرى حين تخدعه اللحظة، وكيف يؤمن حين توحى الظواهر بأن الباطل قد استقرَّ، وكيف يقرأ العالم دون أن يجعل من الحاضر إلهاً يحكم به على المستقبل.

ففي مطلعها جيشان يتقاتلان، وفي قلبها زوجان تسكن نفسٌ منهما إلى الأخرى، وفي فضاءها سماواتٌ وأرض، وفي مسارها رياحٌ وسحابٌ ومطر، وفي تربتها موتٌ وحياة، وفي ختامها قلبٌ نبِيٌّ مأمور بالصبر. وكأن السورة تجمع أطراف الوجود كله لتقول: إن الذي يدبر حركة الإمبراطوريات هو الذي يدبر حركة السحاب، والذي يُخرج الحيَّ من الميت هو الذي يُخرج النصر من الهزيمة، والذي جعل بين الزوجين مودةً ورحمةً هو الذي ألَّف بين ذرات الكون بنظامه، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادراً على أن يحيي القلوب بعد يأسها، والأُمم بعد انكسارها، والأجساد بعد فناءها.

تبدأ السورة من ضجيج المعركة، ثم تنسحب بالقارئ قليلاً قليلاً إلى أعماق نفسه. تنقله من أرض الروم إلى أرض قلبه، ومن تقلب الدول إلى تقلب الأحوال، ومن خسارة الجيوش إلى خسارة الإنسان لنفسه، ومن وعد النصر في بضع سنين إلى وعد البعث الذي لا تحده السنون. فما التاريخ في السورة إلا نافذة، وما الكون إلا كتاب، وما الإنسان إلا آية تمشي بين الآيات.

وستقوم هذه الرحلة التدريبية على ثلاثة مسارات متعاقبة:

مسار الوحي، الذي يردُّ الحوادث إلى وعد الله وحكمته.

ومسار الكون، الذي يكشف في الخلق والإحياء والرياح والمطر والليل والنهار آثار التدبير الإلهي.

ومسار النفس، الذي يرى في الخوف والطمع والحب والضعف والقوة والشيخوخة مرآيا
لمعنى العبودية.

وليس المقصود أن نَحْمِلَ الآيات ما لا تحتمل، أو نغادر دلالاتها المحكمة إلى رموز بعيدة، بل
أن نطلق من اللغة والسياق والنظم، ثم نصغي إلى ما تبثُّه الآية في الضمير من هداية، وما
تفتحه في الحياة من أبواب النظر. فالتدبر الصحيح لا يستبدل معنى الآية، وإنما يستقبل نورها
بعد أن يستقيم له بابها.

هذه سورةٌ تهدم عبادة اللحظة.

فالحظة تقول: هُزِمَت الروم.

والوعد يقول: سيغلبون.

واللحظة تقول: ماتت الأرض.

والمطر يقول: ستخضر.

واللحظة تقول: بلغ الإنسان غاية القوة.

والشيخوخة تقول: سيضعف.

واللحظة تقول: صار الجسد تراباً.

والبعث يقول: سيقوم.

وهكذا تمضي السورة، تُقَلِّبُ صور الحياة أمام العين، حتى تُخْرِجَ القلب من أسر المرئيِّ العابر
إلى يقين الغيب الباقي، ثم تضع في يده آخر وصاياها:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

المشهد الأول

حين هُزمت الروم وانتصر الوعد

﴿الْمُؤْمِنُونَ يُغْلِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَغْلُوبُونَ﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿بِئْضَرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ﴾.

بدأت السورة بحروفٍ لا تفصح عن سرّها، ثم جاء بعدها خبرٌ كانت الدنيا كلّها تتحدث به:
﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾.

كأن الوحي يبدأ من النقطة التي انتهت إليها الأخبار، لكنه لا يقرأ الخبر كما يقرؤه الناس.
الناس يرون جيشاً انكسر، ومدناً سقطت، وإمبراطوريةً تتراجع؛ أما الوحي فيرى ما وراء
ستار الحادثة، ويكشف ما لم تبلغه أعين المراقبين: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.
في لفظةٍ واحدة انتهى الماضي: غُلِبَتِ.

وفي لفظةٍ أخرى انفتح المستقبل: سيغلبون.

وبين اللفظتين سنواتٌ قليلة، ولكن بينهما في ميزان الإنسان هاويةٌ لا يرى لها جسر. كانت
الهزيمة ظاهرةً محسوسة، أما النصر فخبيراً غيبياً. كانت الهزيمة تحت أعين الناس، وأما النصر
ففي علم الله. وهنا يبتدئ الامتحان الحقيقي: أصدق القلب ما تراه العين وحدها، أم يصدق
ما يخبر به الله وإن لم تره العين بعد؟

إن أكثر الناس لا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجر فحسب؛ منهم من يعبد اللحظة
الحاضرة، فيمنحها سلطةً مطلقة على تصوره. فإذا انتصر الباطل ظنَّ أن الباطل خالد، وإذا
هُزِمَ الحق ظنَّ أن الحق قد انتهى، وإذا ضاقت به الحياة حسب أن الضيق هو الصورة
الأخيرة للوجود.

لكن سورة الروم تكسر استبداد اللحظة من أول آياتها.
إن ما وقع ليس كلّ ما سيقع، وما تراه ليس كلّ ما يُدبر، والهزيمة ليست دائماً خاتمة
الطريق؛ فقد تكون موضع الفاصلة التي يتبها بعدها النصر لاستئناف الجملة.

كم من إنسان قال عن نفسه: انتهيت، ولم يكن قد بدأ بعد!
 وكم من قلب ظن أن جرحه خاتمة حكايته، وكان الجرح أول نافذة دخل منها النور!
 وكم من دعوة أحاط بها خصومها، حتى خُيِّلَ إلى الناس أنها تُسَلِّمُ أنفاسها الأخيرة، ثم
 خرجت من بين الركام أشدَّ صفاءً وأعمق جذوراً!
 ليس كلُّ تراجع موتاً، ولا كلُّ صعود حياة. فقد تنهقر الأقدام ويتقدم المعنى، وقد ترتفع
 الرايات ويكون أصحابها في طريق السقوط. والقرآن لا يعلمنا أن ننكر الوقائع، بل يعلمنا ألا
 نُؤَلِّهها. نعترف بالهزيمة حين تقع، لكننا لا نُسَلِّمُ لها مفاتيح المستقبل؛ لأن المستقبل ليس ملكاً
 للحادثة، بل لربِّ الحادثة.

لله الأمر من قبل ومن بعد

كان يمكن أن تقول الآيات: ستتصر الروم بعد سنوات. ولكن السورة لا تريد أن تعطي
 خبراً سياسياً فحسب؛ إنها تريد أن تبني رؤيةً كاملةً للتاريخ:

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

من قبل الهزيمة كان الأمر لله، وفي أثناء الهزيمة كان الأمر لله، ومن بعد النصر سيبقى الأمر
 لله. لم تنتزع فارس الأمر من يده حين غلبت، ولم تملكه الروم حين انتصرت. المنتصرون
 والمهزومون يتحركون داخل ملكه، والأسباب تعمل بإذنه، والسنن تمضي بحكمته، ولا يخرج
 شيء عن تدبيره وإن خرج عن توقع البشر.

وهذه الآية تحرر القلب من افتتانين متقابلين: الافتتان بالقوة، والافتتان بالهزيمة.

فالافتتان بالقوة يجعل الإنسان يظن أن الغالب قد ملك التاريخ، والافتتان بالهزيمة يجعله يظن
 أن المغلوب قد خرج من عناية الله. وكلا الظنين وليدُ نظرٍ قصير. فالله لم يتخلَّ عن ملكه
 حين انتصر الظالم، ولم يعجز عن نصره أوليائه حين تأخرت بشارُ النصر؛ وإنما يُجري المقادير
 في آجالها، ويُخرج من احتكاك الحوادث حكماً قد لا تتجلى لمن يقف داخل اللحظة.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ﴾: ليست كلمة تُقال لتسكين الحزن دون وعي، بل حقيقة تُغيّر طريقة قراءة العالم. معناها أن السياسة ليست منفصلةً عن القدر، وأن صعود الحضارات وسقوطها ليس حركةً عمياء، وأن التاريخ، مهما علا ضجيجُه، لا يستطيع أن يحجب صوت الإرادة الإلهية. إن لله الأمر حين تنهأ الأسباب، وله الأمر حين نتعطل. له الأمر حين تفتح الأبواب، وله الأمر حين تُغلق. له الأمر في البداية التي فهمناها، وفي النهاية التي لم نفهمها، وفي المسافة الغامضة الممتدة بينهما.

ومن عرف أن الأمر لله لم يتهافت على أبواب الخلق متوهماً أن أحداً منهم يحمل مفاتيح الوجود. يأخذ بالأسباب، ولكنه لا يركع لها؛ يقدر القوة، ولكنه لا يؤمن بها إيماناً مطلقاً؛ يقرأ الموازين، لكنه يعلم أن فوق موازين الأرض ميزاناً لا يختل.

فرح المؤمنين: حين يصبح الخبر البعيد شأنًا للقلب

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ رَبَّنَا بِبَصَرِ اللَّهِ﴾.

لم يكن المؤمنون جيشاً من جيوش الروم، ولم تكن بينهم وبين الروم رابطة أرضٍ أو دم، ولكن كانت هناك وشيجةٌ معنى؛ فالروم أهل كتاب، وكان انتصارهم على الوثنيين أقرب إلى قلوب المؤمنين من غلبة فارس المجوسية. وهكذا كان الإيمان يربّي الجماعة المسلمة، منذ ضعفها الأول، على أن تحمل همَّ المعنى خارج حدودها الضيقة.

الإيمان الصادق يوسّع جغرافية القلب.

لا يسأل المؤمن دائماً: ماذا ربحتُ أنا؟ بل يسأل: أيُّ معنى تقدّم؟ وأيُّ حقّ تنفّس؟ وأيُّ باطلٍ انكسر؟ إنه يفرح لا لأن النصر أضاف إلى ماله، بل لأنه أعاد إلى ميزان الحق شيئاً من اعتداله.

ومع ذلك جاء التعبير: ﴿بَصَرِ اللَّهِ﴾؛ لثلاث يتوقف البصر عند الروم، أو يُنسب التحول إلى عبقرية قائد وحدها، أو إلى خللٍ مفاجئ في صفوف الخصم. ما يجري بأسبابه كلها واقعٌ

بنصر الله؛ فهو الذي خلق السبب، وأودع فيه أثره، وهياً وقته، وجمع عناصره، وصرف عنه ما يعطله.

وحين ينسب المؤمن النصر إلى الله لا يلغي جهد الإنسان، بل يضعه في موضعه الصحيح. فالإنسان يزرع ولا يخلق الحياة في البذرة، ويسعى ولا يملك نتائج السعي، ويقاقل ولا يخلق النصر، ويبني ولا يضمن بقاء البناء.

ثم تأتي الآية باسمي الله اللذين يضبطان معنى النصر:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

عزیزٌ فلا يُغالب، رحيمٌ فلا تكون عزته قوةً عمياء.

عزیزٌ يقهر الطغيان، ورحيمٌ يجبر قلوب المستضعفين.

عزیزٌ يغيّر موازين القوى، ورحيمٌ يجعل من ذلك التغيير بلسماً للمؤمنين.

إن القوة إذا انفصلت عن الرحمة صارت بطشاً، والرحمة إذا توهّمها الناس بلا عزة حسبوها ضعفاً، فجاء الاسمان متجاورين ليعلما القلب أن رحمة الله ليست عجزاً عن العقوبة، وأن عزته ليست تجرداً من الرحمة. ينصر بعزة، ويجبر برحمة، ويقهر من يشاء دون ظلم، ويرحم من يشاء دون ضعف.

المشهد الثاني

وَعَدُّ لَا يُخْلِفُهُ اللَّهُ وَعَقُولُ أُسِيرَةُ السُّطْحِ

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ .

ليست المشكلة أن الناس لا يعلمون مطلقاً؛ بل إنهم يعلمون، ولكن عليهم يقف عند القشرة. يعرفون عدد الجنود ولا يعرفون مدد الله.

يعرفون أسعار الأشياء ولا يعرفون أقدارها.

يعرفون كيف تُبنى المدن، ولا يعرفون لماذا يعيش الإنسان فيها.

يعرفون حركة السوق، ولا يعرفون حركة القلب.

يعرفون ما الذي يزيد العمر رفاهاً، ولا يعرفون ما الذي يزيده معنى.

إنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾، وقد جاء اللفظ منكراً، كأن عليهم مهما اتسع يظل قطعةً محدودةً من ظاهرٍ عابر. وليس الذمُّ متوجهاً إلى معرفة الدنيا في ذاتها؛ فالقرآن هو الذي يدعو إلى النظر في الأرض والأنفس. وإنما الذم في أن تتحول معرفة الظاهر إلى حجابٍ عن الحقيقة، وأن يعرف الإنسان الوسيلة وينسى الغاية، وأن يحسن التعامل مع الأشياء ويفشل في معرفة المصير.

قد يبلغ الإنسان أعماق البحار، ولا يبلغ عمق نفسه.

وقد يقيس المسافة بين النجوم، ولا يعرف المسافة بينه وبين الله.

وقد يرى الخلية تحت المجهر، ثم يعمى عن دلالة الحياة فيها.

وقد يقرأ أسباب سقوط الحضارات، ثم لا يرى السنن الأخلاقية التي تنخرها من الداخل.

هنا تقع مفارقة السورة المدهشة: الذين استعظموا خبر انتصار الروم لأنهم أسرى الظاهر، هم أنفسهم الغافلون عن الآخرة. فمن لم يستطع أن يصدق تحولاً سياسياً يقع في بضع سنين، كيف سيصدق انقلاب الوجود كله يوم القيامة؟ ومن جعل الحاضر نهاية المعرفة، سيستبعد النصر بعد الهزيمة، كما يستبعد الحياة بعد الموت.

إن الغفلة عن الآخرة ليست نسيان معلومة، بل اختلال رؤية. إنها أن ترى الأشياء بلا خواتيمها، والأفعال بلا حسابها، والقوة بلا زوالها، واللذة بلا تبعثها، والمظلمة بلا محكمة. ومن هنا كان اليقين بوعد الله تصحيحاً للعقل قبل أن يكون تسليّةً للقلب. فالله لا يخلف وعده، لا لأن الظروف مواتية، بل لأن الصدق وصف كلامه، والقدرة وصف فعله. أما الإنسان فيعدّ ثم يحول بينه وبين وعده عجزاً أو نسياناً أو تبدل إرادة؛ والله منزّه عن ذلك كله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: كلمتان، لكنهما أثقل من جيوش الأرض.

المشهد الثالث

السؤال الذي يخشاه الغافلون: أما تأملوا أنفسهم؟

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

بعد أن حدثتهم السورة عن الروم وفارس، أعادتهم فجأة إلى أقرب موضع أهملوه: أنفسهم. فالإنسان يهرب أحياناً إلى ضجيج العالم كيلا يسمع السؤال القابع في داخله: من أنا؟ ولماذا خلقت؟ وإلى أين أمضي؟

يتابع أخبار الممالك ولا يتابع أخبار قلبه.

يحصي تحولات الدول ولا يحصي التحولات التي صنعها الذنب فيه.

يعرف مواطن الصراع خارجه، ويجهل أن في نفسه معركة بين هداية وهوى، ويقين وظن، وضعف يستمد القوة من الله، وقوة كاذبة تقوده إلى الضعف.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: إن أول طريق إلى معرفة العالم قد يبدأ من الداخل؛ لأن النفس ليست صندوقاً مغلقاً، بل آية مفتوحة. في ضعفها دليل، وفي إرادتها دليل، وفي خوفها دليل، وفي شوقها إلى الخلود دليل، وفي عجزها عن إشباع روحها بمتع الأرض دليل. وحين يتفكر الإنسان في نفسه يدرك أن وجوده ليس عبثاً عابراً. فالكون لم يُخلق لهواً، والسماء لم تُرفع سُدىً، والأرض لم تُمهّد بلا غاية:

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

بالحق في أصلها.

وبالحق في نظامها.

وبالحق في الغاية التي تنتهي إليها.

ولأجل لا تتجاوزها، فحتى السماوات التي تبدو للعين رمزاً للثبات تحمل في وجودها موعداً، والأرض التي تتوارثها الأجيال ليست خالدة. فإذا كان للكون كله أجل، فكيف يتوهم

الإنسان أن القوة التي في يده لا تزول، أو أن شبابه لا يذبل، أو أن ظلمه سيبقى بلا حساب؟

إن حضارات الأرض كلّها تعيش داخل أجل. تولد، وتشتد، وتبلغ أوجها، ثم تتسرب إليها الشيخوخة كما تتسرب إلى الجسد. وبين جسد الإنسان وجسد الحضارة شبه عميق: كلاهما يبدأ ضعيفاً، ويكتسب القوة، ثم يواجه خطر الغرور بها، ثم يهبط إذا استنفد شروط البقاء. غير أن الأجل ليس إعلاناً عن عبث الرحلة؛ بل دليل على أن لها موعداً مع الحكم والجزاء. ولهذا ربطت الآية خلق الكون بالحق والأجل ثم قالت: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

فن آمن أن الخلق بالحق لزمه أن يؤمن باللقاء؛ لأن حياة يموت فيها المظلوم قبل أن ينصف، ويموت فيها الظالم قبل أن يستوفي جزاءه، لا يكتمل ظهور العدل فيها إلا بيوم تعود فيه الحقوق إلى أهلها، وتسقط فيه الأفتنة، وتتكلم الأعمال. الآخرة ليست فصلاً زائداً عن قصة الوجود؛ إنها الفصل الذي تستقيم به القصة.

المشهد الرابع

السير في الأرض: حين تتحول الآثار إلى محكمة

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السَّوْءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

لم تكتفِ السورة بأن تقول للإنسان: تفكر في نفسك، بل فتحت له الطريق وقالت: سِر في الأرض.

فثمة حقائق لا تُقرأ على المقاعد، بل تُقرأ بين الأطلال. هناك، حيث بقيت الحجارة واختفى أصحابها، وحيث صمتت القصور بعد أن كانت تضحُّ بالأوامر، يدرك الإنسان أن القوة مهما تجبَّرت لا تستطيع أن تشتري لنفسها يوماً زائداً إذا جاء الأجل. كان السابقون ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

والقوة هنا لم تكن ادعاءً فارغاً، فقد ﴿أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾. شقُّوا تربتها، واستخرجوا خيراتها، وبنوا حضارتهم فوق ظهرها. امتلكوا القدرة والمعرفة والعمران، لكنهم فقدوا البوصلة التي تهدي القوة إلى غايتها.

ليست الحضارة مذمومة لأنها تبني، بل تُذم حين تجعل البناء ستاراً للخراب الأخلاقي، وحين تعمّر الأرض وتهدم الإنسان، وحين ترفع السقف فوق الرأس وتسحق الفطرة داخل الصدر.

قد نتقدم الوسائل ونتوحش الغايات.

وقد يزداد العمران اتساعاً ويضيق القلب رحمةً.

وقد يصعد الإنسان في الفضاء، بينما يهبط في معنى الإنسانية.

ولهذا لم تكن حجة الله عليهم نقصاً في البيان: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. جاءهم النور، لكنهم اختاروا الظلمة. وقامت في طريقهم العلامات، لكنهم آثروا العمى. فلم يكن هلاكهم ظلماً وقع عليهم من خارجهم؛ بل كان الظلم ينمو في داخلهم حتى صار مصيراً: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وهذه من أقسى حقائق القرآن: أن الإنسان قد يكون الجاني على نفسه وهو يتوهم أنه يحسن خدمتها. يعطيها كل شهوة، فيحرما السكينة. يطلق لها كل هوى، فيسلبها الحرية. يحميها من مشقة الطاعة، فيسلبها إلى مشقة الضياع.

ثم تكشف الآية التالية عن المنحدر المخيف: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

فالسيدة لا تمر دائماً ثم تنتهي؛ قد تترك في القلب أثراً يجعل السيدة التالية أيسر، حتى يصبح الذنب فكرة، والفكرة موقفاً، والموقف تكديباً. يبدأ الإنسان بمخالفة الحق لأنه يشقُّ على هواه، ثم ينتهي إلى إنكار الحق كي يستريح من عتابه.

إنهم لم يستهزئوا بالآيات لأنهم أقاموا البرهان على بطلانها، بل لأن الاستهزاء كان آخر أسلحة العاجز عن مواجهتها. يضحك منها في الظاهر، لأنها أيقظت في باطنه سؤالاً يخشاه.

وهكذا ينتهي المشهد الأول الكبير من السورة: إمبراطورية تُهزم ثم تُبعث قوتها، وحضاراتُ تبني ثم تسقط، وإنسانٌ يرى الظاهر وينسى الآخرة. وبين هذه الصور كلها تتردد الحقيقة ذاتها:

لا تغترَّ بما بلغ ذروته، ولا تيأس مما بلغ قاعه؛ فالقوة والضعف حالتان متداولتان، أما الأمر الثابت الذي لا يتغير فهو أن الله الأمر من قبل ومن بعد، وأن وعد الله لا يخلف، وأن العاقبة لا يرسمها لمعان البداية، بل الحق الذي تقوم عليه النهاية.

المشهد الخامس

البَدْءُ الذي يشهد للإِعادة

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

بعد أن سارت بنا السورة بين أطلال الأمم، وأرتنا كيف تنتهي الحضارات التي ظنَّ أهلها أنها خالدة، رفعت أبصارنا من مصائر الجماعات إلى مصير الخليقة كلّها: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

إن الذي أخرج الوجود من العدم لا تعجزه إعادته بعد الفناء، والذي أنشأ الإنسان أول مرة لا يحتاج في بعثه إلى أكثر مما احتاج إليه في بدئه؛ بل كلاهما متعلق بكلمة القدرة التي لا يعجزها شيء.

غير أن الإنسان يأنس بالمألوف حتى يظنه الممكن الوحيد. يرى الميلاد يتكرر كل يوم فلا يعجب، ويرى البعث لم يقع أمام عينيه فيستبعده. مع أن الميلاد نفسه بعثٌ أول، والوجود بعد العدم أعجب في مقياس العقل من عودة موجودٍ تفرقت أجزاؤه.

إننا نقف عند المهد فلا نسأل كثيراً: كيف جاء هذا الكائن من ماءٍ مهبٍ؟ كيف تشكلت عيناه في الظلمة؟ كيف عرفت الخلايا مواضعها؟ كيف صار الصمت لساناً، والضعف حركة، والقطرة إنساناً يتذكر ويحب ويخاصم ويحلم؟

لقد جعل التكرار المعجزة مألوفة، ولم ينزع عنها حقيقتها. كلُّ مولود برهانٌ يمشي على إمكان البعث، وكل نبتة تشقُّ التراب شهادةٌ خضراء بأن الموت ليس نهاية القدرة، وكل فجرٍ يخرج من جوف الليل صورةٌ صغرى لقيام الوجود من مرقدته. ومع ذلك لم تقل الآية: ثم تعودون؛ بل قالت: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فالرجوع ليس مجرد عودة إلى الحياة، بل عودة إلى الله؛ إلى حكمه، وموقف الحساب بين يديه، وانكشاف ما أخفته الصدور.

لقد كان الإنسان في الدنيا يتوهم أن بإمكانه الابتعاد: يفرُّ من الآية إلى الشهوة، ومن النداء إلى الضجيج، ومن سؤال المصير إلى الانشغال بالتفاصيل. ولكنه في النهاية لا يرجع إلى

فراغ، ولا يضيع في تراب؛ بل يرجع إلى ربِّ كان يراه حين غفل، ويحفظ عمله حين نسيه،
ويمهله حين عصاه.
إن حياتنا ليست خطأ يخرج من الله ثم يمضي بعيداً عنه؛ إنها قوسٌ يبدأ بأمره وينتهي إلى
لقاءه.

المشهد السادس

يوم تصمت الأعدار

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾: يدخلون في صمت اليأس، حين تنطفئ الحيل كلها، فلا يبقى في أيديهم عذر صالح للكلام، ولا أمل في الهرب.

في الدنيا كان الجدل طويلاً، وكانت الألسنة سريعة، وكانت الحجج المصنوعة تتناسل كلها اقتربت الحقيقة. أما هناك فتراجع اللغة؛ لأن الحقائق حين تحضر كاملة لا تترك للباطل مساحةً للمراوغة.

ما أشد ذلك الصمت!

ليس صمت من لم يجد كلمة، بل صمت من أدرك أن الكلمات كلها صارت شهوداً عليه. لقد انقضى زمان التبرير، وجاء زمان الظهور؛ ظهرت الأعمال في صورتها الحقيقية، وظهرت الآلهة المدعاة في عجزها، وظهر الإنسان أمام نفسه بلا زينة.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾.

كل ما علّق عليه القلب من دون الله يتهاوى في تلك اللحظة. الأصنام الحجرية، والأوثان البشرية، والجاه، والمال، والجماعة، والقوة، والاسم الذي كان يفتح الأبواب؛ كلها تقف خارج باب المصير عاجزة عن حمل ذنب واحد.

والشرك ليس مجرد سجود لثال؛ إنه أن يمنح القلب شيئاً من الخلق مقاماً لا يستحقه إلا الخالق: أن يُطاع في معصية الله، أو يُرجى رجاءً مطلقاً، أو يُخشى حتى يعصى الله من أجله، أو يتوهم أنه يملك الضر والنفع استقلالاً.

وفي القيامة يقع الانفصال المروّع: ﴿وَكَانُوا إِشْرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾. يتبرأ العابد من معبوده، والمتبوع من تابعه، وتتحوّل الروابط التي بُنيت على الباطل إلى خصومات. فما لم يُبَيّن على الله لا يحفظه الله عند انكشاف الحقيقة.

ثم تقول السورة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾.

كانوا في الدنيا مختلطين؛ يجلس المؤمن والكافر في السوق نفسه، ويمشي الصادق والكاذب في الطريق نفسه، وقد يتجاور قلبان لا يعلم الناس ما بينهما من البعد. لكن القيامة يوم الفرز الأكبر. هناك تنقطع المجاملات التي أخفت الفروق، ويذهب كل إنسان إلى المصير الذي كان يبنيه في الخفاء.

إن الناس لا يفترقون يوم القيامة اعتباطاً؛ بل كانوا يفترقون في الدنيا من الداخل، ثم أظهر ذلك اليوم ما كان مستوراً. كان أحدهم يسير بقلبه إلى الله، والآخر يسير بقلبه عنه، وإن تلامست أكتافهما في الطريق.

روضَةٌ تتسع لكل ما ضاق به القلب

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

يا لعذوبة الانتقال: من إبلас المجرمين إلى حُبور المؤمنين، ومن الصمت اليأس إلى السرور الذي تظهر آثاره على الوجوه.

لم تقل الآية: فهم في نِجاة فحسب، بل قالت: ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾. والروضة في الحسّ موضعٌ تجتمع فيه الخضرة والماء والحياة والجمال. وكأن الإيمان الذي ظلّ في الدنيا غرساً خفياً في القلب قد صار في الآخرة روضةً تحيط بصاحبه.

كل تسبيحةٍ نبتة.

كل دمة خشيّة قطرة.

كل شهوة حبسها الإنسان عن الحرام سياج.

كل ألم صبر عليه في سبيل الله جدولٌ من الطمأنينة.

كل معروفٍ صنعه ثم نسيه زهرة لم ينسها الله.

كان المؤمن يعمل الصالحات في أرضٍ قد لا ترى ثمرها، وربما مات وهو يحسب أن أثره ضاع؛ فإذا به يدخل يوم القيامة الروضة التي كان يغرسها طوال حياته.

﴿يُحْبَرُونَ﴾: يُسْرُونَ سروراً يملأ نفوسهم ويظهر عليهم. إنه فرحٌ لا يتهدده زوال، ولا تختلط به ذكرى الخسارة، ولا يراقب الساعة خوفاً من النهاية. فكل فرح الدنيا يحمل في داخله ظلَّ الفناء، أما حبور الجنة فقد نزع منه الخوف.

وفي المقابل: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾. لم يضلوا الطريق إليه؛ بل يُحْضَرُونَ إحضاراً، فلا غياب ولا فرار. كانوا في الدنيا يتغيّبون عن مجالس الحق، ويغلقون أسماعهم عن الآيات، ويعيشون كأن لقاء الآخرة لن يقع؛ فإذا بهم يُحْضَرُونَ إلى الحقيقة التي أمضوا أعمارهم في الهروب منها.

وهكذا تقيم السورة مقابلةً تقطع القلب:

قومٌ في روضةٍ يُحْبَرُونَ.

وقومٌ في العذاب مُحْضَرُونَ.

وبين المصيرين حياةٌ قصيرة، قد يغيّر فيها قرارٌ صادق وجه الأبد.

المشهد السابع

حين يصبح اليوم كله محراباً

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۖ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

بعد مشهد القيامة بما فيه من فرقةٍ وحبورٍ وعذاب، تعيدنا السورة إلى اليوم العادي: صباح ومساء، وظهرٍ وعشيٍّ. ولكن اليوم بعد رؤية الآخرة لا يعود عادياً؛ تصير ساعاته جسوراً إلى الله، ويصبح الزمن نفسه محراباً.

﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

في الصباح يخرج الوجود من سكون الليل كأنه خلق لئله، فتليق به كلمة التسبيح. وفي المساء تطوي الظلمة ألوان الأشياء، وتردُّ المتحركين إلى سكونهم، فتليق به كلمة التسبيح. وبين البدء والانطواء يظل القلب شاهداً على أن الذي يقبّل الليل والنهار منزّه عن التغير الذي يجري عليهما.

سبحان الله حين يولد النور.

وسبحان الله حين يسكن الضجيج.

سبحان الله في انطلاق الحياة إلى أشغالها.

وسبحان الله في عودتها متعبةً إلى مأواها.

والتسبيح تنزيهٌ لله عن كل نقص، لكنه في حياة القلب أوسع من عبارةٍ يرددها اللسان؛ إنه تحرير للتصور من كل ظنٍّ لا يليق بالله. حين تضيق بك المقادير فتقول: سبحان الله، فأنت تنزّهه عن العبث. وحين يتأخر الجواب، فأنت تنزّهه عن الغفلة. وحين ترى الباطل يعلو، فأنت تنزّهه عن العجز. وحين لا تفهم الحكمة، فأنت تنزّهه عن أن يكون فعله خالياً منها. ولهذا كان التسبيح دواء الحيرة؛ لأنه يعيد القلب من اضطراب السؤال إلى كمال المسؤول سبحانه.

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الحمد له في كل موضع، لأن آثار نعمته ملأت كل موضع. تحمده الملائكة في السماء، ويحمده المؤمنون في الأرض، وتشهد بحمده الموجودات كلها وإن لم نفهم تسبيحها.

له الحمد على ما أعطى، وله الحمد على ما منع؛ لأن العبد يرى صورة العطاء والمنع، والله يعلم حقيقتهما. قد يمنعك رحمةً، ويعطيك ابتلاءً، ويؤخر عنك ما تحب حتى يحفظك، ويفتح لك ما لم تطلب حتى يعرفك لطفه.

وإذا كان الأمر له من قبل ومن بعد، فالحمد له من قبل ومن بعد. إن غلبت الروم فله الحمد، وإن غلبت ففي القدر حكمةٌ يحمده عليها. ليس معنى ذلك أن كل فعلٍ بشري محبوبٌ لله؛ فالظلم ظلم، والعدوان عدوان، ولكن لا يقع في ملكه ما يخرج عن علمه وتقديره، ولا تخلو أقداره من حكمة وإن خفيت على العباد.

وبهذه الآيات يحتضن الذكرُ اليومَ كله: مساءً، وصباحه، وعشيه، وظهيره. كأن السورة لا تريد للمؤمن أن يترك في يومه ساعةً يتيمّةً من الصلّة بالله.

فالزمن الذي لا يُذكر الله فيه يتحول إلى عمرٍ مستهلك، أما الزمن الذي يسكنه الذكر فيتحول إلى حياةٍ مدخرة.

المشهد الثامن

سر الحياة المخبأ في قلب الموت

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

هذه الآية قلبُ السورة النابض، لأن معناها يتكرر في كل مشاهدتها وإن اختلفت الصور. غلبت الروم، ثم خرج النصر من الهزيمة.

وماتت الأرض، ثم خرج النبات من تراهاها.

ويضعف الإنسان، ثم تُستخرج من ضعفه قوة.

ويموت الجسد، ثم يخرج من الموت حياً للبعث.

إن الله لا يعالج الأشياء كما نعالجها نحن؛ نحن نبحث عن الحياة في الحي، وعن القوة في القوي، وعن النصر في مقدماته الظاهرة. أما قدرة الله فتُخرج الضدَّ من ضده، وتُخَيِّ الميلاذ في الموضع الذي ظنه الناس قبراً.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

يخرج النبتة الغضة من الحبة الساكنة، والفرخ الحي من البيضة، والإنسان من النطفة،

والمؤمن من بيتٍ لم يعرف الإيمان، والقلب يقظ من بين طبقات الغفلة.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

يخرج الجماد من الحي، وتخرج الحبة من النبتة، وقد يخرج قلب ميت من بيئةٍ تضج بالحياة.

فليست القرابة ضماناً للهداية، ولا البيئة وحدها حُكماً نهائياً على الإنسان. يستطيع الحي أن يلد ميتاً، كما يستطيع الميت بإذن الله أن يخرج منه حي.

وفي الآية تربيةٌ على ألا نحكم على البدايات بمعاييرنا الضيقة. فقد يحمل الإنسان في تاريخه موتاً كثيراً، ثم يخرج الله من بين ركامه حياةً مدهشة. وربما عاش سنواتٍ بعيداً، ثم مرَّت بقلبه آيةٌ واحدة فبعثته من قبره الداخلي.

كم من روج كانت أرضاً يابسة، لا أثر فيها لخضرة الرجاء، ثم نزل عليها غيث الهداية، فإذا ما طُنَّ أنه انتهى صار بداية!

﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

يجيء المطر إلى الأرض فلا يعاتبها على طول يباسها، ولا يسألها لماذا ماتت؛ يلامس ترابها، فتستجيب الحياة المختبئة في الأعماق. وكذلك رحمة الله حين تنزل على القلب: لا يشترط أن يكون القلب مزهراً قبلها؛ فهي التي تجعله يزهر.

ليس السؤال: كم مات فيك؟

بل السؤال: هل تعرضت لمطر الوحي؟

هل فتحت شقوق روحك لقطرة توبة؟

هل أبقيت في أعماقك مكاناً يمكن أن تنبت فيه الآية؟

ثم تسقط السورة الحجة الأخيرة: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾. كما رأيت الأرض تخرج من موتها، تخرجون. ليس البعث فكرةً منفصلة عن مشهد الكون؛ إنه الحقيقة نفسها تتكرر في صورة أعظم. والمطر الذي يوقظ البذور تدريبٌ بصريٌّ للبشر على فهم القيامة.

كل ربيع حجة.

كل ورقة خضراء رسالة.

كل ساق تشق التراب إعلانٌ صامت أن القبور ليست نهاية القصة.

المشهد التاسع

من ترابٍ إلى بشرٍ ينتشرون

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

هنا تبدأ سلسلة من الآيات الكونية والإنسانية، نكرر في مطالعها العبارة المهيبة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾.

فالوجود ليس مجموعة أشياء صامتة، بل منظومة إشارات. السماء آية، والأرض آية، واللون آية، واللغة آية، والنوم آية، والبرق آية، والحب آية. وكل ما حول الإنسان يخرج من صمته حين يتعلم كيف ينظر.

لكن أولى الآيات هنا هي الإنسان نفسه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

من ترابٍ يداس، خرج كائنٌ يمشي منتصباً، وينطق، ويعقل، ويخطط، ويبني المدن، ويقيس النجوم. يا لها من مسافة بين أصلٍ ساكن وكائنٍ يملأ الأرض حركة! ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

جاءت ﴿إِذَا﴾ كأنها تبأغت العين بالمشهد: ترابٌ، ثم إذا الأرض تمتلئ بالبشر! أصواتٌ وأسواق، قرى ومدن، لغاتٌ ووجوه، رحلاتٌ وحكايات؛ وكل هذا الامتداد البشري كان أصله تراباً.

الإنسان مخلوقٌ يحمل في ذاته مفارقةً تهذب غروره: فيه نفخة التكرم، وتحت ذاكرة التراب. يستطيع أن يعلو بالإيمان حتى يسمو، ويستطيع أن ينسى أصله فيطغى؛ فإذا تكبر ذكّره الآية بالمادة الأولى، وإذا احتقر نفسه ذكّره بما صنع الله من تلك المادة. لستَ عظيماً بذاتك؛ فأصلك تراب.

ولستَ هيناً؛ فقد صنع الله من التراب هذا السرَّ الإنساني العجيب.

والتراب لا يختار شكله ولا لونه ولا زمانه، وكذلك الإنسان لم يختَر وجهه ولا موطن ميلاده ولا أبويه. فما أكثر ما يتكبر الناس بأشياء لم يصنعوها! يزهو أحدهم بلونٍ لم يختَره، أو نسبٍ لم يبنه، أو أرضٍ سبقه إليها القدر.

لو سمع المتكبر صوت التراب في داخله لاستحيا.

ولو أدرك المنكسر ما أودع الله فيه من آيات لنهض.

ثم إن الانتشار نفسه لم يكن عبثاً؛ لقد بثَّ الله البشر في الأرض ليعمروا لا ليفسدوا، وليتعارفوا لا ليتناكروا، وليحمل كلُّ واحد منهم أمانة وجوده. غير أن كثيراً منهم انتشر في المكان، ولم يرتقِ في المعنى؛ ملأ الأرض بخطاه، ولم يملأ قلبه بمعرفة خالقه.

فليست العبرة أن ينتشر الجسد، بل أن ينتشر النور الذي يحمله.

ومن هذه الآية التي تردُّ الإنسان إلى أصل خلقه، ستقوده السورة إلى واحدة من أرقِّ آياتها: كيف جعل الله لهذا المخلوق الخارج من التراب سكناً من جنسه، وأودع بين قلبين سرّاً لا يُرى، ولكن تقوم عليه البيوت وتحتمله الحياة: سرُّ المودة والرحمة.

المشهد العاشر

آيةُ السَّكن: حين يجد القلبُ وطنه في قلبٍ آخر

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بعد أن ذكرت السورة الإنسان بأنه خُلق من تراب، كشفت له عن سرِّ آخر من أسرار خلقه: أن هذا الكائن، على ما فيه من عقلٍ وقوةٍ وقدرةٍ على الانتشار في الأرض، لا يكتمل وحده، ولا يستغني قلبه عن قلبٍ يسكن إليه.

قالت الآية: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾، فكان في اللام معنى العناية والامتنان. لم يخلق الأزواج لمجرد استقرار النوع البشري، بل خلق في العلاقة نعمةً مخصوصة للإنسان؛ دفئاً يؤويه، وقرّباً يخفف عنه وحشة الطريق، ومكاناً نفسياً يعود إليه حين نتعبه المسافات.

ثم قالت: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

أي من جنسكم وطبيعتكم الإنسانية، لتقوم بينكم إمكانات الفهم والأنس والتلاقي. ولكن العبارة تفيض بإحباء أرق: فكان الزوج ليس غريباً ألصق بحياتك، بل هو من دائرة نفسك؛ يصير أمله قريباً من أملك، وفرحه ممتداً في فرحك، ويصبح ما يصيبه كأن شيئاً فيك قد أُصيب.

فالزواج في الرؤية القرآنية لا يقوم على علاقة تملك، بل على انتقال النفس من انغلاقها إلى المشاركة. يتعلم الإنسان فيه أن الحياة ليست ضميراً مفرداً دائماً، وأن «أنا» لا تصلح وحدها لبناء بيت؛ فلا بد أن تتسع حتى نتعلم معنى «نحن».

ولم تقل الآية: لتسكنوا معها، بل قالت: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾. ففي «إليها» حركة نفسية، كأن القلب كان مسافراً حتى انتهى إلى مأواه. إن السكن ليس أن يسكن جسدان تحت سقفٍ واحد، بل أن نتوقف الروح عن شعورها بالغرابة حين تجد روحاً تأمن عندها.

قد يجتمع اثنان في مكان ولا يسكن أحدهما إلى الآخر؛ لأن السكن ليس جداراً وسريراً ومائدة، بل طمأنينة تُبنى من الصدق، وأمانٌ يولد من الوفاء، ورحمةٌ تجعل الإنسان قادراً على أن يظهر ضعفه دون أن يخشى أن يُستعمل ضعفه ضده. أن تسكن إلى إنسان يعني أن تخفف أمامه حراسة قلبك. أن تعود إليه من قسوة العالم فلا يزيدك قسوة. أن تقول ما يؤمك فلا يحول اعترافك سلاحاً عليك. أن ترى في وجهه بيتاً معنوياً، لا مجرد شريك في المكان.

المودة والرحمة: جناحا البيت

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

قال: ﴿جَعَلَ﴾؛ لأن هذا السرّ الذي ينعقد بين قلبين ليس ثمرة الحساب البشري وحده. قد يلتقي شخصان غريبان، لا نسب بينهما ولا تاريخ، ثم يصيران أقرب الناس، حتى يؤلم أحدهما ما يؤلم الآخر، ويسهر لصمته، ويفهم من عينيه ما لا يفهمه الآخرون من كلامه. من الذي مدّ هذا الجسر الخفي بين القلبين؟

من الذي نقل الغريب من هامش الحياة إلى مركزها؟

من الذي جعل صوتاً بعينه طمأنينة، ووجهاً بعينه أنساً، ووجوداً بعينه وطناً؟

إنها آية الله؛ لا لأنها تقع خارج الأسباب، بل لأن الأسباب نفسها لا تفسر سرّها كلّها.

وقد جمعت الآية بين المودة والرحمة؛ لأن الحياة الزوجية لا تسير على شعورٍ واحد.

المودة هي حرارة القرب، والشوق، والرغبة في إسعاد الآخر، والسرور بحضوره. أما الرحمة

فهي اليد التي تبقى حين نتعب العاطفة، والقلب الذي يصبر حين تبدل الأحوال، والوفاء

الذي يحمل العلاقة حين لا تحملها نشوة البدايات.

المودة تُقبل على جمال الآخر، والرحمة تحتضن ضعفه.

المودة تقول: أحب قربك.

والرحمة تقول: لن أتركك حين تحتاج إليّ.

المودة تزدهر في زمن الصحة والقوة، والرحمة تظهر معدنها عند المرض والشيخوخة والعجز. وقد يذهب شيء من وهج البدايات، لكن الرحمة العميقة تجعل العشرة أشد رسوخاً من الانفعال العابر.

لهذا لم يجعل القرآن أساس البيت جمالاً يَفنى، ولا منفعةً تنقضي، ولا شهوةً تهدأ، بل جعل فيه مودةً ورحمةً؛ لأن البيت يحتاج قلباً يُحب، وقلباً يرفق، وقدرةً على تجاوز ما يتغير إلى ما ينبغي أن يبقى.

وليس أفسد للعلاقة من أن يتحول الزوجان إلى خصمين، يجمع كل واحد منهما أخطاء الآخر، ويترصد مواضع ضعفه، ويطلب الانتصار عليه. فالبيت لا يحتمل غالباً ومغلوباً؛ إذا انهزم أحد الزوجين انكسر من البيت شيء، وإذا انتصر أحدهما على صاحبه خسر كلاهما بعض السكن.

إن الزواج ميثاقٌ تعاونٍ على قسوة الطريق، لا ساحةٍ لإضافة قسوة جديدة إليه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

لأن الألفة، مع شيوعها، معجزة لا يدرك سرّها إلا من تجاوز العادة إلى التفكير. يرى الناس البيوت كل يوم، فينسبون أن قيام بيتٍ على الوفاء وسط تقلب النفوس آية، وأن بقاء الرحمة بعد طول العشرة آية، وأن احتمال الإنسان لإنسانٍ آخر بما فيه من نقصٍ وتبدل آية.

وفي قوله: ﴿يَبْنِيكُمْ﴾ لفظةٌ رقيقة؛ فالمودة ليست شيئاً يملكه أحد الزوجين وحده، وإنما حقيقة تنشأ في المسافة بينهما. ولذلك تحتاج إلى رعاية الطرفين. إن أهملها أحدهما ضعفت، وإن أهملها كلاهما تحولت المسافة التي كانت مملوءةً بالمودة إلى فراغٍ موحش.

فاحفظوا «بينكم»؛ فإن أكثر ما يهدم البيوت لا يقع في أحد الطرفين منفرداً، بل يقع في المسافة التي كف الاثنان عن رعايتها.

المشهد الحادي عشر

اختلافٌ لم يُرده الله خصومة

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾.

ترتفع السورة من دفء البيت الصغير إلى اتساع السماوات والأرض، ثم تجمع في آية واحدة بين عظمة الكون وتنوع الإنسان. فالذي رفع السماء هو الذي نوع الأصوات، والذي بسط الأرض هو الذي وزع الألوان والملاح على الوجوه.

﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

ليست اللغة أداة محايدة تنقل المعاني بحسب؛ إنها وعاء ذاكرة، وخزانة تاريخ، وطريقة أمة في رؤية العالم. وفي الأرض آلاف الألسن، لكل منها أنغامها وتراكيبها ومجازاتها، وكلها خرجت من جهاز إنساني متشابه: رثان، وحنجرة، ولسان، وشفتان؛ لكن الأصوات تتنوع، واللغات تتشعب، والدلالات تتكاثر.

بل إن أبناء اللغة الواحدة لا تتطابق أصواتهم. يسمع الإنسان صوت من يحب من وراء حجاب فيعرفه، كأن الله جعل في كل حنجرة توقيعاً لا يلتبس بغيره.

وكذلك ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾. لم يجعل الله البشرية نسخة واحدة متكررة، بل صبغ الوجوه بألوان متعددة، ووزع الملاح توزيعاً لا ينفد. تمر على الإنسان آلاف الوجوه، فلا يكاد يجد وجهين متطابقين؛ كأن القدرة الإلهية تعلن في كل وجه أنها لا تعجزها الكثرة، ولا تضطرها الأعداد إلى التكرار.

والمفارقة المؤلمة أن الإنسان أخذ الآية التي أرادها الله دليلاً عليه، فجعلها سبباً للتعالي على عباده. حول اختلاف اللون إلى طبقات، واختلاف اللسان إلى عداوة، واختلاف القوميات إلى أسوارٍ من الكراهية.

لكن الآية لا تقول: ومن مشكلاتكم اختلاف ألستكم وألوانكم؛ بل تقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾. فالاختلاف هنا جمالٌ مقصود، لا عيبٌ يحتاج إلى محو. إنه وحدة الأصل مع تنوع الصورة؛ حتى يتعلم الإنسان أن الوحدة لا تعني التطابق، وأن الانسجام لا يقتضي أن تختفي الفروق. البستان الذي لا يحمل إلا لوناً واحداً أقلُّ فتنةً للعين، واللحن الذي لا يعرف إلا نغمةً واحدة لا يصنع موسيقى. وكذلك الإنسانية: أرادها الله متنوعة الملامح والألسن، موحدةً في أصل العبودية والكرامة.

وإذا كان اختلاف الألسن والألوان آيةً من آياته، فإن احتقار لونٍ أو لغةٍ ليس إساءةً إلى صاحبها فحسب، بل جهلٌ بجمال الصنعة الإلهية. فما الذي صنعه الإنسان في لونه حتى يفتخر؟ وما ذنب الآخر في لونٍ اختاره الله له؟

لا فضل للمرآة في الصورة التي انعكست عليها، وإنما الفضل لصاحب الصورة. ثم ختمت الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ لأن العلم الحق لا يزيد صاحبه ضيقاً بالخلق، بل يجعله أقدر على اكتشاف الحكمة في تنوعهم. وكل علمٍ يعلو بصاحبه على الناس ولا يقوده إلى التواضع أمام خالقهم، فقد حفظ شيئاً من ظاهر العالم وفاته قلب المعرفة.

المشهد الثاني عشر

النوم: الموت الرحيم الذي يعيدنا إلى الحياة

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.
ننام كل يوم، حتى نسينا أن النوم آية.

يضع الإنسان رأسه، فيسلم وعيه، وتغيب عنه الدنيا، وتسقط من يده الأشياء التي ظل طوال يومه يظن أنه يمسكها. لا يستطيع وهو نائم أن يحرس ماله، أو يدافع عن جسده، أو يدبر أمره. كأن الله يعلمه كل ليلة درساً صامتاً في العجز: أنت لا تقوم بنفسك، ولو وكلتك إلى قوتك لما استطعت أن تحفظ وعيك ساعة.
النوم اعترافٌ جسديٌّ بأن الإنسان محدود.

مهما ادعى الاستغناء، يأتيه النعاس فيطوي مقاومته. ينام الملك والحارس، والقائد والجندي، والغني والفقير؛ وتستوي الرؤوس حين توضع على وسائد العجز.
ومع ذلك فالنوم ليس ضعفاً محضاً؛ إنه رحمة. يطفى الله به ضجيج الأعصاب، ويرمم ما هدمه النهار، ويعيد إلى الروح بعض صفائها. يدخل الإنسان فراشه منهكاً، ثم يخرج منه وقد تجددت فيه طاقة لم يصنعها بيده.
وكم يشبه النوم الموت!

يفارق الوعي عالمه، ثم يعود بإذن الله. ولهذا كان الاستيقاظ بعثاً صغيراً، ورسالةً يومية تقول للإنسان: الذي ردَّ إليك روحك بعد نومك قادرٌ على أن يردّها بعد موتك.

﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: فالنوم آية حيث وقع، في ظلمة الليل أو أثناء النهار. والقرآن يلتفت إلى الإنسان في اختلاف أحواله، فلا يحصر الرحمة في صورة واحدة.

ثم وضع إلى جانب السكون حركة السعي: ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. نومٌ وسعي، سكونٌ وحركة، انسحابٌ من العالم وعودةٌ إليه؛ وهكذا تنتظم الحياة بالتوازن.

ليس الإنسان آلة للعمل الدائم، وليس مخلوقاً للكسل الدائم. له حقٌّ في أن يسكن، وعليه واجبٌ في أن يسعى. وإذا اختلَّ الميزان، تحوّل العمل إلى استنزاف، أو تحولت الراحة إلى نحول.

ولم تقل الآية: وطلبكم للرزق، بل قالت: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ حتى لا يظن الساعي أن ما ناله كان ثمرة مهارته وحدها. أنت تخرج وتعمل، ولكن أبواب الرزق لا تفتحها يدك منفردة. كم من مجتهدٍ ضاق رزقه، وكم من بابٍ جاء منه الخير ولم يكن في الحساب! السعي منك، والفضل منه.

الخطوة منك، وتيسير الطريق منه.

البذل منك، ووضع البركة منه.

ثم قالت: ﴿لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. ولعل ذكر السماع هنا يوقظ في النفس معنى الاستجابة؛ فليس كل من وصل الصوت إلى أذنه قد سمع. السماع الذي يريده القرآن هو أن تدخل الآية إلى القلب، فتغيّر نظره وحركته.

وقد يكون العالم كله مملوءاً بالآيات، لكن الضجيج الداخلي يحول بين الإنسان وبين سماعها.

المشهد الثالث عشر

البرق بين الخوف والطمع

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يشق البرق ظلمة السماء في لحظة واحدة، فيوقظ في القلب شعورين متقابلين: الخوف والطمع.

يخاف المسافر صاعقته، ويطمع الزارع في مطره. يخيف بقوته، ويدشّر بما وراءه. وفي مشهد واحد يجمع الله ضدين، كما تجمع الحياة في كثير من أقدارها ألماً ورجاءً، رهبةً وإشارة. وما أكثر ما يأتينا فضل الله ملفوفاً بشيء نخافه!

قد تبرق في سماء الحياة حادثةٌ ترعب القلب، ثم تحمل السحابة التي وراءها مطراً لم يكن لينزل بغيرها. وقد يكون ما أخافك أول الأمر هو نفسه ما يفتح لك باباً من الرحمة. إن الإنسان يريد النعمة صافيةً من كل امتحان، ويريد المطر بلا رعد، والتحول بلا قلق، والنضج بلا ألم؛ لكن الله يربيه بين الخوف والطمع، حتى لا يأمن فيغفل، ولا ييأس فينقطع.

الخوف وحده يصنع روحاً منكشمة.

والطمع وحده قد يصنع نفساً غافلة.

أما اجتماعهما فيصنع قلباً يقظاً؛ يهرب من الله إليه، ويخاف عدله ويرجو رحمته، ويرى البرق فلا يكتفي بالرهبة من لمعانه، بل ينتظر الغيث الذي يحمله.

﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

ذلك الماء الرقيق الذي يمكن أن تحمله الكف هو الذي يبعث أرضاً واسعة. لا صخب في قطرته، لكنها تهزم الموت الممتد في التراب. تنزل متفرقة، ثم تصنع بالاجتماع أنهاراً، وتكسو الأرض حياة.

وفي ذلك درسٌ للأعمال الصغيرة: قد تحتقر قطرة الخير لأنها لا تغيّر المشهد وحدها، لكن الله يجمع القطرات حتى تُحيي. كلمةٌ صادقة، وموقفٌ نزيه، وصدقةٌ خفية، وتعليمٌ طفلٍ آية؛ قد تبدو أشياءً محدودة، لكن الأرض الميتة لا تطلب من كل قطرة أن تكون نهراً. يكفي أن تكون قطرةً صادقةً في غيث الرحمة.

﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

إنها الحقيقة المركبة التي تعود مرةً بعد مرة: الحياة تخرج من الموت. لم يعد إحياء الأرض مجرد مشهد زراعي، بل صار قانوناً للرجاء. فلا يحقّ لقلبٍ يؤمن برب المطر أن يحكم على الياس بأنه أبدي.

إذا مات في الإنسان شعور، استطاع الله أن يحييه.

إذا يبست أمة، استطاع الله أن ينزل عليها من الوعي ما يعيد اخضرارها.

إذا جفّت العلاقة، فقد تعيدها قطرة صدق.

إذا مات الرجاء، فقد توقفه آية.

لكن الأرض لا تخضر بمجرد معرفتها أن المطر موجود؛ لا بد أن تلتقاه. وكذلك القلوب: لا تحيا لمجرد وجود القرآن في رفوفها، بل حين ينزل معناه عليها، ويتخلل شقوقها، ويصل إلى جذور الإرادة فيها.

المشهد الرابع عشر

قيامُ الكونِ بأمرٍ واحد

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ۚ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَائِمُونَ﴾.

ننظر إلى السماء فنراها قائمةً مستقرة، وإلى الأرض فنمشي عليها آمنين، ويخدعنا دوام المشهد حتى نظنه قائماً بذاته. فتردنا الآية إلى الحقيقة: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾.

ليس الكون بناءً انتهى خالقه من صنعه ثم تركه يعمل مستقلاً؛ إنه قائمٌ في كل لحظة بإمداد الله وتديره. لو انقطع عنه أمره ما بقيت سماء في موضعها، ولا أرض في نظامها. كل انتظامٍ نراه هو طاعةٌ كونية.

كل فلكٍ يحفظ مساره قانت.

كل جاذبية تؤدي وظيفتها قانتة.

كل ذرة لا تتجاوز القانون الذي أودعه الله فيها خاضعة.

ولذلك قالت الآية: ﴿كُلُّ لَهُ قَائِمُونَ﴾. الوجود كله في عبودية، وإن تمرد بعض البشر في مجال التكليف. يستطيع الإنسان أن يعصي أمر الله الشرعي، لكنه لا يستطيع الخروج على أمره الكوني؛ يمرض رغم أنفه، ويشيخ رغم أنفه، ويموت في الموعد الذي لا يملك تأخيرته. يا للعجب: يعيش المتمرد في جسدٍ مطيع!

يعصي الله بلسانٍ لا يعمل إلا بإذنه، ويمشي إلى معصيته بقدمٍ خاضعة لقانونه، ويتنفس في أثناء الجحود هواءً خلقه الله.

فأيُّ فقرٍ أشد من أن يستعير العبد كل أدوات عصيانه من مولاه؟

ثم ينتقل السياق من قيام السماء والأرض إلى خروج الناس من القبور: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

دعوةٌ واحدة!

لا يحتاج البعث إلى زمن طويل، ولا إلى محاولات، ولا إلى جمع يعالج فيه الخالق شتات كل جسد على حدة. إنها دعوة، فإذا القبور التي صمتت قروناً تفتتح أفواهها، وإذا التراب يرد ودائعه، وإذا البشر جميعاً يخرجون.

تكرر ﴿إِذَا﴾ لتصور المفاجأة وسرعة الاستجابة: دعاكم، فإذا أنتم خارجون. الإنسان الذي كان في الدنيا يتناقل عن إجابة الصلاة، ويؤجل التوبة، ويتباطأ عن الحق، سيجيب يومها دعوة لا يملك تأخيرها.

في الدنيا دعاك الله لتخرج من موت الغفلة مختاراً.
وفي الآخرة يدعوك لتخرج من موت الجسد مقهوراً.
فطوبى لمن أجاب الدعوة الأولى قبل أن تفجأ الثانية.

المشهد الخامس عشر

الإعادة التي يستبعدونها واخلق كله شاهد عليها
﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

تعود السورة مرة أخرى إلى قضية البدء والإعادة، لأن النفس التي ألفت إنكار البعث تحتاج إلى أن تُحاصر بها البراهين من جهاتها كلها.
﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

نحن نقيس الأشياء بمقدار صعوبتها علينا، ثم ننقل مقاييس عجزنا إلى قدرة الله. نرى أن إعادة الشيء بعد تفرقه عسيرة، لأننا نحن نعجز عنها؛ لكن الخلق الأول والإعادة كلاهما على الله يسير.

وجاء قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ خطاباً للعقول بما تدركه من مقاييسها؛ فإن الإعادة في مألوف البشر أهون من الابتداء، مع تنزيه الله عن أن تكون قدرته متفاوتةً يلحقها عسر أو كلفة. ولهذا عقبت الآية بما يحفظ جلال التنزيه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

فلا يُقاس الخالق على المخلوق.

ولا تشبه قدرته قدراتنا.

ولا علمه علمنا.

ولا سمعه وأسماعنا.

ولا صفاته صفات خلقه.

له الوصف الأعلى الكامل الذي لا نقص فيه، والمنزّه عن كل مماثلة؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وإذا ضرب القرآن للإنسان مثلاً مما يعرف، فإنما يقرب له المعنى الذي يحتمله عقله، لا ليجعل ذات الله أو صفاته مماثلةً لشيء من خلقه. فالتخيال البشري مهما ارتفع مخلوقٌ محدود، والله سبحانه أعظم من أن تحيط به صورة أو يبلغه وهم.

ثم ختمت الآية: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

عزیزٌ لا يعجزه أن يعيد الخلق.

حكيمٌ لا يبعثهم عبثاً.

عزیزٌ يملك القدرة على إقامة الساعة.

حكيمٌ يجعلها موعداً للعدل وانكشاف الحقائق.

وهنا تكتمل دائرة واسعة من آيات السورة: بدأ الإنسان من تراب، وانتشر في الأرض، وسكن إلى زوجه، واختلف لسانه ولونه، ونام واستيقظ، وخاف البرق وطمع في المطر، ورأى الأرض تحيا؛ ثم قيل له: إن كل هذه الآيات التي تحيط بك ليست مشاهد متفرقة، بل شواهد تتجه إلى حقيقة واحدة:

أن الذي أحسن البداية لا تعجزه الإعادة، وأن الذي أقام السماء والأرض بأمره قادرٌ أن يقيم الناس للحساب بأمره، وأن الكون كله لا ينطق بإمكان البعث وحده، بل ينطق بحتميته؛ لأن الخلق بالحق لا تكتمل حكمته دون رجوع الخلق إلى ربهم.

المشهد السادس عشر

مَثَلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَهْدِمُ وَهْمَ الشَّرِكِ

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

بعد أن قررت السورة أن الله المثل الأعلى، وأن السماوات والأرض قائمة بأمره، نزل الخطاب إلى واقع الإنسان، وضرب له مثلاً من العلاقات التي يعرفها؛ حتى يرى التناقض الذي صنعه الشرك في عقله.

هل يرضى أحدكم أن يكون من يملكه شريكاً له في ماله، مساوياً له في التصرف، يخشاه كما يخشى شريكه الحر المساوي له؟

إذا كنتم لا تقبلون لأنفسكم هذا النوع من المشاركة فيما تظنون أنه ملككم، فكيف تجعلون لله شركاء من خلقه، مع أنكم وما تملكون جميعاً ملكاً له؟
إنها حجةٌ تستخرج التوحيد من داخل الفطرة العقلية. فالإنسان يعرف في أعماقه أن الخالق لا يستوي مع المخلوق، وأن المالك لا يكون كالمملوك، وأن من يفتقر في وجوده إلى الله لا يمكن أن يكون شريكاً لله.

ومع ذلك، ما أسرع ما يوزع الإنسان قلبه بين أربابٍ كثيرة!

قد لا ينحت صنماً من حجر، لكنه ينحت في داخله أصناماً من الخوف والطمع. يجعل لرضا الناس نصيباً من العبادة، وللمال سلطةً على ضميره، وللمنصب قدرةً على تغيير مبادئه، وللجماعة حقاً في أن تقول له ما الحق وما الباطل دون رجوع إلى هدى الله.

وحينئذ لا يعود القلب موحدًا، وإن ظل اللسان يردد كلمات التوحيد؛ لأن التوحيد ليس لفظاً مجرداً، بل جمعٌ لشتات القلب تحت سلطان واحد.

الموحد لا يعني أنه لا يجب أحداً، أو لا يخاف شيئاً خوفاً طبيعياً، أو لا يرجو خيراً من إنسان؛ بل يعني أن محابه ومخاوفه ورجاءاته كلها تبقى تحت حكم محبة الله وخشيته ورجائه.

فلا يحب ما يبغضه الله، ولا يطيع مخلوقاً في معصيته، ولا يبيع الحق طلباً لأمانٍ موهوم عند غيره.

إن القلب إذا لم يجتمع على الله تمزق بين السادة.

سيدٌ يأمره أن يقول.

وسيدٌ يأمره أن يصمت.

وسيدٌ يعدّه بالمنفعة.

وسيدٌ يهدده بالخسارة.

حتى يعيش عبداً لوجهٍ كثيرة، يخشى تحولها، ويراقب رضاها، ويحمل في صدره محكمةً مزدحمةً بآراء الناس.

أما التوحيد فيعيد إليه كرامته؛ لأنه ينقله من عبودية المتعدد العاجز إلى عبودية الواحد القادر. وحين يكون الله وحده هو الإله، تصغر الآلهة المصطنعة كلها، ولا يعود في الأرض أحدٌ يملك أن يشتري ضمير المؤمن أو يستولي على قلبه.

﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالعقل ليس مجرد قدرة على ابتكار الوسائل، بل قدرة على رؤية التناقض والتحرر منه. وقد يكون الإنسان بالغ الذكاء في شؤون الدنيا، ثم يسلم قلبه لوهمٍ لا يقبله في أبسط معاملاته. لذلك لا يمدح القرآن العقل بوصفه ملكة ساكنة، بل يمدح استعماله في الوصول إلى الحق.

المشهد السابع عشر

حين يصبح الهوى قائداً

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

لم يكن الشرك نتيجة برهان عقلي، بل ثمرة هوى اتخذ لنفسه هيئة الفكر.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

والهوى لا يأتي الإنسان دائماً معلناً عن نفسه. نادراً ما يقول المرء: سأرفض الحق لأنني لا أريده. إنه يصنع له رأياً، ويجمع حوله كلمات منمقة، ويبحث عن شبهة تريخه من تكاليف الهداية؛ حتى يبدو ميل النفس وكأنه حكم العقل.

ولذلك كان أخطر الباطل ما لبس ثوب الفكرة، وهو في حقيقته رغبة تخشى أن يحاكمها النور.

قد يرفض الإنسان الدليل، لا لضعفه، بل لأن قبوله يطالبه بالتغير.

وقد يجادل في الحلال والحرام، لا لأنه يبحث عن حكم الله، بل لأنه يريد حكماً يوافق ما عزم عليه.

وقد ينتقل من رأي إلى رأي كلما انتقلت مصلحته، ثم يسمي اضطرابه تطوراً فكرياً.

الهوى لا يريد أن يتعلم من الحقيقة، بل يريد من الحقيقة أن تتخني له.

ولهذا قيّد اتباع الأهواء بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. فالعلم نور يكشف الأشياء كما هي، والهوى دخان يجعل المرء يرى الأشياء كما يشتهي. فإذا غلب الدخان النور، لم يعد صاحب الهوى قادراً على التمييز بين ما يريده وما هو حق.

ثم يأتي السؤال المنزل: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

ليس معنى ذلك أن الله يظلم إنساناً فيصرفه عن هدى طلبه صادقاً؛ تعالى الله عن الظلم. وإنما يخذل من اختار العمى، وأعرض بعد البيان، وأصر على الهوى حتى صار الهوى طريقته. فلها زاعوا أراغ الله قلوبهم، وكان الجزاء من جنس الاختيار.

إن من عقوبات الذنب أن يضعف في القلب إحساسه بأنه ذنب، ومن عقوبات الإعراض أن يصير النور ثقیلاً على العين. يبدأ الإنسان قادراً على الرجوع، ثم يؤجل، ويبرر، ويكرر، حتى يبني بيديه جداراً بينه وبين الهدى.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

فالذين أطاعهم في معصية الله لن ينصروه من الله، والهوى الذي وعده باللذة لن يقف معه عند العقابة. كل تلك الأصوات التي زينّت له الطريق تتلاشى عند النهاية، ويبقى وحده أمام ما اختار.

المشهد الثامن عشر

الفطرة: البوصلة المدفونة تحت ركام العادة

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن صوّرت الآية السابقة تشتت الإنسان خلف أهوائه، جاء الأمر جامعاً حاسماً: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

إقامة الوجه أبلغ من مجرد الاتجاه العابر. إنها استقامة القصد كلّّه، بحيث لا يلتفت القلب كلما ناداه صوت، ولا يغير قبلته كلما تغيرت المصلحة.

فالوجه موضع التعرف والظهور والتوجه. وإذا أقام الإنسان وجهه لله، أقام معه حياته؛ لأن الجسد يتبع الوجه، والعمل يتبع القصد، والطريق يتحدد بالجهة التي يثبت عليها البصر. لم يقل: وجهك حيناً ثم عد، بل قال: ﴿فَأَقِمْ﴾. فالإيمان ليس زيارة موسمية إلى المعنى، بل إقامة. ليس لحظة تأثر تتطفئ، بل قبة ثابتة يعود إليها القلب كلما شتته الطريق.

﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن سبل الشرك إلى التوحيد، وعن الاعوجاج إلى الاستقامة، وعن كثرة الأرباب إلى رب العالمين. والحيف لا يقف في نقطة رمادية بين الحق والباطل؛ إنه يعرف الجهة التي غادرها والجهة التي قصدها.

ثم جاءت العبارة التي تغمر الإنسان بهيبة الأصل: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. الدين الحق ليس جسماً غريباً يفرض على طبيعة الإنسان من خارجها؛ إنه النداء الذي يوقظ أعمق ما أودعه الله فيه. فالنفس مفطورة على الاستعداد لمعرفة ربها وتوحيده وقبول الحق، وإن تراكت عليها المؤثرات حتى حجب صوت الأصل.

لهذا يشعر الإنسان، حين يعود إلى الله عودة صادقة، أنه لم يدخل أرضاً غريبة، بل عاد إلى وطنٍ قديم. كأن قلبه يقول: كنت أعرف هذا الطريق، لكن الغبار أخفاه.

في الفطرة حنينٌ إلى إله واحد؛ لأن تعدد المعبودات يمزق القلب.

وفيهما حينئذٍ إلى العدل؛ لأن الظلم يصدّم شيئاً أصيلاً فيها.
 وفيها شوقٌ إلى الطهر؛ وإن غلبت الشهوة زمناً.
 وفيها حاجةٌ إلى المعنى؛ لذلك لا تشبعها الأشياء مهما كثرت.
 قد يملك الإنسان مآلاً وطعاماً ومتعةً ومكانةً، ثم يشعر بجوعٍ لا يعرف له اسماً. ذلك أن الجسد أخذ حصته، وبقيت الروح تطلب غذاءها. والروح لا يشبعها ما خلق من التراب؛ لأنها متعلقة بمعرفة من خلق الإنسان من التراب.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.

لا يملك الباطل أن يصنع للإنسان فطرةً أخرى. يستطيع أن يغطيها، ويشوّه استجابتها، ويثقلها بالعادات، لكنه لا يستطيع أن يحوّل الباطل إلى غذائها الطبيعي. ولهذا يظل العاصي، في أعمق نقطة منه، مطاردًا بشعور النقص وإن زين لنفسه ما يفعل.

يمكن للإنسان أن يخدر الفطرة، لكنه لا يستطيع أن يمنحها موتاً كاملاً ما دام باب التوبة مفتوحاً. قد توقظها مصيبة، أو لحظة صدق، أو آية سمعتها مصادفة، أو جنازة عبرت أمامها، أو رحمة لم تكن تتوقعها.

ثم تقول السورة: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

القيم: المستقيم في ذاته، المقيم لحياة الإنسان. فالدين لا يستقيم به جانب التعبد وحده، بل تستقيم به نظرة المرء إلى نفسه والناس والكون والمال والقوة والموت.

وحين يخرج الإنسان من عبودية الله لا يصبح حراً كما يتوهم؛ بل ينتقل إلى عبوديات أصغر وأقسى: عبودية الشهوة، ونظرة المجتمع، والخوف من الفقر، والسعي المحموم إلى الاعتراف.

الدين القيم لا يسلب الإنسان حريته؛ إنه يحررها من أن تُباع لما دون الله.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. يعرفون أشكال الحياة، لكنهم لا يعرفون ما يقيمها. يبحثون عن السكينة في زيادة ما يملكون، مع أن جذر الاضطراب قد يكون في فساد الجهة التي يقصدونها.

المشهد التاسع عشر

العودة التي لا تكون في المحنة وحدها

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

الفطرة ليست فكرةً فلسفيةً ساكنة، بل طريق عودة: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

الإنبابة رجوعٌ يتكرر. فالإنسان لا يصل إلى الله بخطوةٍ لا تعقبها عشرة، بل بقلبٍ كلما ابتعد انتبه، وكلما أذنب استغفر، وكلما شرد أعاد وجهه إلى القبلة.

ليس التقي من لم يعرف الزلل البشري قط، بل من لم يتخذ من الزلل وطناً. قد يسقط، لكنه لا يصادق السقوط.

وقد يضعف، لكنه لا يجعل ضعفه عقيدة.

وقد تغلبه نفسه، لكنه يبقى عارفاً بطريق الرجوع.

والإنبابة فيها معنى المحبة، لا الخوف وحده. فالمنيب لا يعود كعبدٍ يساق إلى سيد يكرهه، بل كغائبٍ اشتاق إلى بيته. يعود إلى الله لأنه أدرك أن كل المسافات بعيداً عنه موحشة، وإن امتلأت بالمتع.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾. فالإنبابة التي لا تثمر حذراً من المعصية قد تتحول إلى عاطفة عابرة. والتقوى أن تجعل بينك وبين سخط الله وقايةً من الطاعة؛ أن يكون في قلبك نورٌ يسألك قبل الخطوة: أين يرضى الله؟

ثم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

فالصلاة ليست فعلاً منفصلاً عن إقامة الوجه للدين؛ إنها التجسيد اليومي لذلك الاتجاه. نحس مرات يُنتشل الإنسان من تشتته، ويقف بوجهه وجسده وقلبه نحو الله، كأن الصلاة تعيد ضبط البوصلة التي عبثت بها مشاغل اليوم.

في الصلاة يترك التاجر سوقه، والحاكم سلطانه، والعالم كتبه، والعامل أدواته؛ ويقفون جميعاً بين يدي الله بلا ألقاب. هناك تنساقط الفوارق المصطنعة، ويعود الإنسان إلى حقيقته الأولى: عبدٌ فقير يقف أمام ربِّ غني.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ولأن التوحيد يجمع الوجه على قبلة واحدة، فإن الشرك يبعثره. لذلك انتقلت الآيات مباشرةً إلى صورة من صور التزق: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾.

حين يغيب الأصل الجامع، تتحول الفروع إلى معارك هوية، ويصبح الانتماء إلى الحزب أو الطائفة أسبق في القلب من الانتماء إلى الحق. لا يعود الإنسان يسأل: ماذا قال الله؟ بل يسأل أولاً: ماذا يقول فريقِي؟

والمشكلة ليست في مجرد الاجتماع على عملٍ أو اجتهدٍ أو تنظيمٍ؛ فالبشر لا يستغنون عن التعاون. إنما الخطر أن يتحول الجزء إلى دين، والجماعة إلى ميزانٍ للحق، والولاء للناس إلى حجاب يمنع الاعتراف بخطئهم.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

إنه فرحُ الاكتفاء المغلق؛ لا فرح الشاكر بما هداه الله إليه. فرحٌ يجعل صاحبه عاجزاً عن المراجعة، لأنه لا يرى ما لديه اجتهداً يحتمل الصواب والخطأ، بل يراه الحق كله، ويرى ما عند الآخرين باطلاً كله. وهنا يصبح الفرح حجاباً.

يفرح الإنسان بعدد أتباعه، فينسى أن الكثرة لا تصنع الحق.

ويفرح بتاريخ جماعته، فيرفض رؤية عيوب حاضرها.

ويفرح بمصطلحاته، حتى يظن أن من لم يستعملها لم يعرف الدين.

ويفرح بانتصاره في الجدل، ولو خرج أخوه منه مكسور القلب بعيداً عن الهداية.

إن الوحدة التي يدعو إليها القرآن ليست محواً لكل اختلاف، فاختلاف الألسن والألوان آية؛

وإنما هي أن يبقى الاختلاف تحت سقف العبودية، وآلا يتحول الاجتهاد البشري إلى صنمٍ ينازع الوحي مقامه.

المشهد العشرون

تدينُ العاصفةُ وغفلةُ الشاطئ

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

عندما يمسُّ الناسُ الضر، تنساقط الزخارف الفكرية التي بنوها في الرخاء، ويخرج من الأعماق صوت الفطرة: يا الله.

في لحظة الخطر لا يبحث الغريق عن فلسفة تهرر الموج، بل يبحث عن يد تنقذه. وحين تضيق الأسباب، يتذكر الإنسان مسببها. كأن المحنة تقشر عن القلب طبقات الوهم، حتى يظهر تحته إقراره القديم بربه.

قالت الآية: ﴿مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾؛ مجرد مسٍّ للضر يكشف هشاشتهم. فالإنسان الذي يمشي في الرخاء منتفخاً بإحساس السيطرة، قد تغير خبر واحد لون وجهه، ونتيجة فخص واحدة ترتيب حياته، وخسارة مفاجئة معنى الأشياء في عينه.

ما أضعف الإنسان، وما أسرع ما ينسى ضعفه!

﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾. في تلك اللحظة تتوحد القبلية؛ لا يدعو قلبه شهرة ولا مالاً ولا منصباً، لأنه رأى حدودها جميعاً. يعود إلى الله خالصاً، بعد أن كانت العافية تسمح له بوهم الاستغناء.

لكن الخلل يظهر بعد انتشاع السحابة: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

جاءت الرحمة ذوقاً؛ لم يقل: أعطاهم الرحمة كلها، بل أذاقهم منها. فإيصالنا في الدنيا مهما عظم ليس إلا ذوقاً من بحر رحمته. شفاءً بعد مرض، وأمنٌ بعد خوف، وفرجٌ بعد ضيق؛ قطرات تعرفنا بالمنبع ولا تستنفده.

ومع ذلك، ما أسرع انقلاب الإنسان! ما إن يستقر القارب حتى ينسى الدعاء الذي ارتجف به فوق الموج. ينسب النجاة إلى الطبيب وحده، أو المال، أو الحيلة، أو المصادفة، كأن الأسباب التي عجزت لحظة الخوف استعادت فجأةً مقام الربوبية. إن أخطر النسيان أن تنسى الله بالنعمة التي أنعم بها عليك. تطلب المال لتطمئن، فإذا جاءك شغلك عنه. وتطلب الصحة لتطيعه، فإذا عافاك استخدمت قوتك في الغفلة. وتطلب الفرج متعهداً بالعودة، فإذا جاء الفرج عدت إلى ما كنت عليه. وهنا تصبح النعمة حجةً بدل أن تكون جسراً. ثم يأتي الوعيد في نبرةٍ تخلع عن المتاع لمعانه الكاذب: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. إنه متاعٌ قصير، حتى لو امتدَّ سنوات. وما قيمة سنواتٍ محدودة أمام معرفةٍ تأتي بعد فوات زمن العمل؟ سيعلمون، ولكن العلم الذي لا ينفع؛ لأنهم نقلوا الحقيقة من زمن الاختيار إلى زمن الاضطرار. طوبى لمن علم قبل أن يُقال له: سوف تعلم.

المشهد الحادي والعشرون

هل أنزل الله للشرك حجة؟

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

سؤال قصير يهدم بناءً كاملاً من الأوهام: هل أنزل الله عليهم حجة تنطق بصحة شرهم؟

ما سلطانهم؟

أيُّ وحي أذن لهم أن يجعلوا لله نداً؟

أيُّ برهان أعطى المخلوق شيئاً من خصائص الخالق؟

إن الباطل يعيش طويلاً على هيبة الموروث، وتكرار العادة، وكثرة الأتباع. يفعلُه الناس جيلاً بعد جيل، حتى يبدو السؤال عنه نوعاً من الجرأة. لكن القرآن يجرد العادة من قداستها ويسألها: أين سلطانك؟

ليست كل فكرة قديمة حقاً.

وليست كل ممارسة شائعة صحيحة.

وليست كثرة السائرين على الطريق دليلاً على أنه يبلغ الغاية.

إن الحق يحتاج إلى سلطانٍ من الوحي أو برهانٍ صحيح، أما الباطل فيكفيه غالباً أن يتوقف الناس عن السؤال.

وهكذا يحجر القرآن العقل من رهبة المألوف. لا يطلب منه أن يهدم كل موروث، بل أن يزنه؛ فما وافق الحق حفظ، وما ناقضه لم تمنحه القَدَم عصمة.

وما أكثر السلاطين الوهمية التي نتكلم في حياة الناس بلا حجة: «هكذا وجدنا»، و«هكذا يقول الجميع»، و«هذه مصلحتي»، و«هذا هو الواقع». لكنها حين تُعرض على نور الوحي لا تجد لساناً تنطق به.

المشهد الثاني والعشرون

الإِنْسَانُ بَيْنَ رَحْمَةٍ تُنْسِيهِ وَسَيِّئَةٍ تُقْنَطُهُ

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

ترسم الآية قلباً تتقاذفه الحوادث؛ إذا جاءت الرحمة فرح بها، لا بالمنعم، وإذا جاءت الشدة قنط، كأن الرحمة لن تعود.

إنه قلبٌ مربوطٌ بالطقس الخارجي للحياة: يشرق إذا أشرقت الظروف، ويظلم إذا أظلمت، لا يحمل في داخله شمساً ثابتة من اليقين.

ليس الفرح بالرحمة مذموماً في ذاته؛ فمن الطبيعي أن يفرح الإنسان بالعافية والرزق والفرج. إنما الخلل أن يقف الفرح عند النعمة فلا يعبر منها إلى المنعم، وأن تتحول العطية إلى ستار يحجب صاحبها.

الفرح المؤمن يقول: هذا من فضل ربي.

أما الفرح الغافل فيقول في أعماقه: هذا لي، وبمهارتي، وأنا أستحقه.

الأول يشكر فيزداد قرباً.

والثاني يبطر فيزداد حجاباً.

ثم إذا أصابتهم سيئة: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾. وجاءت «إذا» لتصور سرعة التحول؛ ما إن تمسهم الشدة حتى يسقط بناؤهم النفسي. لأن رجاءهم لم يكن معلقاً بالله، بل بصورة معينة من عطائه؛ فلما غابت الصورة ظنوا أن الرحمة نفسها قد غابت.

القنوط سوء معرفة بالله. إنه أن تجعل ألم اللحظة أكبر في تصورك من رحمة الله، وأن تحاكم المستقبل بحكم الحاضر، وأن تظن أن اليد التي أخرجت النصر من هزيمة الروم، وأخرجت النبات من الأرض الميتة، لا تستطيع أن تخرج فرجك من ضيقك.

وسورة الروم كلها مقاومة للقنوط.

غلبت الروم: ثم سيغلبون.

ماتت الأرض: ثم تحيا.

ضعف الإنسان: ثم يقوى.

مات الجسد: ثم يبعث.

فكيف ييأس من يقرأ في كل صفحة من الكون أن الله يخفي الحياة في باطن الموت؟
ثم تشير الآية إلى أن بعض السيئات يقع ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لترد الإنسان من اتهام القدر
إلى محاسبة نفسه. وليس كل ألم عقوبة على ذنب بعينه؛ فالأنبياء أشد الناس بلاء، وقد يكون
البلاء رفعةً وتحيصاً. لكن من الشدائد ما هو ثمرة مباشرة لاختيارات البشر: ظلمٌ ينشئ
خوفاً، وفساداً يصنع فقراً، وتفريطٌ يورث انهياراً.

وحين يتجاهل الإنسان البذور التي زرعها، يفاجئه الحصاد ثم يسأل: من أين جاء؟

المشهد الثالث والعشرون

بسطُ الرزق وقدره: الامتحان في صورتيه

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

البسط والقبض صورتان لتدبير واحد.

يسبط الله الرزق، ويقدره؛ أي يضيقه بحكمة. وليس الغنى دائماً علامة رضا، ولا الفقر علامة سخط. قد يكون البسط امتحاناً للشكر، كما يكون التضيق امتحاناً للصبر؛ وقد ينجح الفقير في امتحانه ويفشل الغني، أو يقع العكس.

لكن الإنسان يحب أن يقرأ الرزق قراءةً سطحية: من اتسع ماله فهو مكرم، ومن ضاق فهو مهان. وكأن قيمة الإنسان رقم في حسابه، وكأن خزائن الدنيا شهادات تُوزعها السماء على صلاح أصحابها.

والقرآن يحذر الكرامة من هذه المقاييس. المال عطاء، لكنه ليس العطاء كله؛ فقد يُبسط الرزق في اليد ويُقبض عن القلب، فيملك المرء أشياء كثيرة ويفقد القدرة على الاستمتاع بها. وقد يضيق المال وتوسع الطمأنينة، فيأكل الإنسان القليل بقلب لا تطارده المخاوف.

كم من غنيٍّ تحرسه الجدران ولا يحرسه السلام!

وكم من فقيرٍ ضاق بيته واتسعت روحه!

الرزق أوسع من المال: علمٌ رزق، ومحبةٌ رزق، وصحةٌ رزق، وصديقٌ صادق رزق، وقلبٌ يخشع رزق، وقدرةٌ على النوم دون خوف رزق. ومن حصر الرزق في النقود عاش فقيراً إلى نعم تملأ حياته ولا يراها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فالإيمان هو الذي يجعل الإنسان يقرأ اختلاف الأرزاق بوصفه تدبيراً وابتلاء، لا فوضى عمية. وهو لا يدعوه إلى ترك العمل؛ فقد سبق قوله: ﴿وَابْتَغُوا كُرْمَ مَنْ فَضَّلَهُ﴾. لكنه يعلم أنه يسعى دون أن يجعل الرزق إلهاً، وأن يعمل دون أن يظن أن ثمرة العمل ملكٌ مضمون

له.

خذ بالأسباب كأنك مسؤولٌ عن السعي كله، وتوكل على الله لأنك لا تملك من النتيجة شيئاً.

وإذا بسط الله لك، فلا تمدَّ قامتك على عبادته؛ فما عندك فضلٌ قابل للزوال.
وإذا ضيق عليك، فلا تُسقط قيمتك من عين نفسك؛ فربما حفظك بالمنع، أو هياك لعطاءٍ لا ينبت إلا في أرض الصبر.
إن يد الله لا تكون غائبةً حين تُغلق؛ كما أنها ليست حاضرةً فقط حين تفتح. ففي القبض تربية، وفي البسط تربية، وبينهما يتعلم القلب ألا يعبد الحالة، بل يعبد ربَّ الحالات.

المشهد الرابع والعشرون

للمال طريقان: أن يكون جسراً أو جداراً

﴿فَاتِذَا الْقَرْيَةُ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

بعد الحديث عن بسط الرزق وتقديره، تنتقل السورة من سؤال: كم رزقك الله؟ إلى سؤال أعمق: ماذا صنعت بما رزقك؟

فالمال في التصور القرآني ليس ككلة مغلقة يدور بها الإنسان حول نفسه، بل أمانة تتحرك في دوائر الحقوق. وحين يبسط الله لعبده في الرزق، فإن في ذلك البسط نصيباً كتبه لغيره، ليصل إليه من يده.

قالت الآية: ﴿فَاتِذَا الْقَرْيَةُ حَقَّهُ﴾، ولم تقل: تفضل عليه. فالذي تعطيه ليس دائماً منحة زائدة عن الواجب، بل قد يكون حقاً عندك أودعه الله في مالك. وحين تسمي الشريعة ما يأخذه المحتاج «حقاً»، فإنها تحفظ كرامته من أن يقف منك موقف المستجدي، وتحفظ قلب الغني من غرور المتفضل.

أنت لا تعطي لأنك خالق النعمة، بل لأنك أمين عليها.

ولا تعطي لأنك أعلى من المحتاج، بل لأن الله اختبرك بالبسط واختبره بالحاجة.

وقد ينجح هو في صبره، وتفشل أنت في شكرك.

بدأت الآية بذي القربى؛ لأن البعيد قد تراه العين، أما القريب فقد تحجبه الألفة. وكم من إنسان يمد يده إلى آفاق بعيدة، وفي أسرته قلب منكسر لا يسأل، أو قريب يتعفف عن إظهار حاجته!

إن صلة الرحم ليست مشاعر تُقال في المناسبات، بل احتمال وتفقد ونفقة ووفاء. والقرابة التي لا تظهر عند الحاجة اسم بلا حقيقة.

ثم ﴿الْمُسْكِينِ﴾؛ الذي أسكنته الحاجة، وأضعفت حركته، وربما سترت ثيابه النظيفة فقره عن الأبصار. لا تنتظر منه دائماً أن يشرح لك انكساره؛ فالكرامة قد تغلق فم المحتاج، وعلى الرحمة أن نتعلم قراءة الصمت.

ثم ﴿ابْنَ السَّبِيلِ﴾؛ المسافر الذي انقطع عن أسباب ماله، فكأن الطريق صار أباً له ونسباً مؤقتاً. وقد يكون غنياً في وطنه، لكنه محتاج في غربته؛ ليتعلم الناس أن القوة والغنى حالتان نسبيتان، وأن الإنسان قد يصبح محتاجاً في لحظة، وإن كان وراءه من الأموال ما كان. ثم يرتفع العمل من يدٍ تعطي إلى قلبٍ يقصد: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

فليست قيمة العطاء في حجمه وحده، بل في الوجهة التي خرج إليها من القلب. قد يعطي المرء كثيراً ليرى، فيستوفي جزاءه من أعين الناس. وقد يعطي قليلاً في الخفاء، لا يريد إلا وجه الله، فيحمل القليل عند الله وزناً لا تحمله الكنوز.

إرادة وجه الله تنقي العمل من التجارة الخفية مع الخلق. لا ينتظر المعطي ثناءً، ولا يطالب الفقير بأن يظل مديناً له بالولاء، ولا يحول صدقته إلى سلسلة في عنق من أعانه.

إن العطاء لله يحرر الآخذ من ذلّ المنّة، ويحرر المعطي من عبودية المدح. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح ليس أن تجمع أكثر، بل أن تصل بما جُمع إلى غايته. قد يظن الإنسان أن ما أخرجه قد نقص من ماله، بينما يكون الخارج هو الجزء الوحيد الذي نجا له. وما أبقاؤه خلفه انتقل إلى غيره، أما ما قدمه لله فقد سبقه إلى الأبد.

المشهد الخامس والعشرون

الزيادة التي تنقص، والعطاء الذي ينمو

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَاً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

تضع الآية أمامنا ميزانين: ميزان الناس وميزان الله.

في ميزان الناس قد يبدو الربا زيادة، ويبدو البذل نقصاً. رقمٌ يتضاعف هنا، ومالٌ يخرج من اليد هناك. لكن القرآن يكشف ما وراء ظاهر الحساب: ما نما في دفاتر الدنيا قد يحق في الحقيقة، وما نقص في ظاهر المال قد يتضاعف عند الله.

﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

إن هناك أموالاً تكبر أرقامها وتصغر بركاتها، وتوسع خزائنها وتضيق بها الصدور. يحملها صاحبها معه خوفاً بدل الطمأنينة، وتحول علاقته بالناس إلى استغلالٍ لحاجتهم. فلا كل زيادة ثناء، ولا كل كثرة بركة.

الثناء الحقيقي ليس ما يضيف إلى الرصيد فحسب، بل ما يضيف إلى الإنسان. فإذا زاد المال وأكل الرحمة من القلب، فقد اتسع الشيء وضاق صاحبه. وإذا تضاعف الربح على حساب آلام الضعفاء، فربما ارتفع البناء فوق أرضٍ من اللعنات.

وفي المقابل: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

إنها مضاعفةٌ لا يراها الحساب المادي القريب. فالمال الذي يخرج الله لا يسقط من حياة صاحبه، بل يدخل في دورةٍ أوسع من البركة والأجر. قد يعود طمأنينة، أو دفع بلاء، أو محبةٌ في قلوب الخلق، أو أجراً ينتظره حيث ينقطع المال كله.

والزكاة، بمعناها الجامع للعطاء المتزكي، تطهر جهتين معاً: تطهر مال الغني من حق الفقير، وتطهر قلبه من عبادة ما يملك. فالمال إذا لم يخرج منه شيء لله، ربما دخل كله إلى القلب واستوطنه.

وحين قالت الآية: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، أعادت توجيه البوصلة. فالعمل الواحد قد يختلف عند الله باختلاف المقصد. يدان تخرجان المبلغ نفسه؛ إحداهما تشتري صورةً اجتماعية، والأخرى تطلب وجه الله، وبين العطائين مسافة ما بين الأرض والسماء. ما أعجب ميزان الوحي:

الربا في ظاهره زيادة، وهو عند الله لا يربو.

والزكاة في ظاهرها نقص، وأهلها هم المضاعف لهم.

وهذا من صميم رسالة سورة الروم: لا تثق بظاهر اللحظة وحده. كما لم تكن هزيمة الروم نهاية قوتها، ليس خروج المال من اليد نهاية أثره. قد يختبئ النماء في صورة النقص، ويختبئ المحق في صورة الزيادة.

المشهد السادس والعشرون

من الذي فعل كل هذا؟

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تجمع الآية رحلة الإنسان كلها في أربعة أفعال:

خلقكم.

رزقكم.

يميتكم.

يحييكم.

من المهد إلى الرزق، ومن الحياة إلى القبر، ومن القبر إلى البعث؛ المراحل كلها في قبضة الله. فأين الشركاء؟ وأيُّ جزءٍ من هذه الرحلة صنعوه؟

هل خلقوا خليةً واحدة من جسدك؟

هل أودعوا الحياة في قلبك قبل ميلادك؟

هل ضمنوا لك رزقاً حين خرجت من بطن أمك لا تملك لنفسك شيئاً؟

هل يستطيعون ردَّ الموت إذا حضر؟

هل يملكون أن يفتحوا القبر ويعيدوا ساكنه؟

﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وجاءت ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لتعمق العجز: ليس المطلوب منهم أن يفعلوا ذلك كله؛ هل يفعلون شيئاً منه؟ والجواب الذي تعرفه الفطرة قبل اللسان: لا.

إن الذين يمنحهم الإنسان قلبه لا يملكون حتى قلوبهم. والذين يعصي الله لإرضائهم لا يملكون أن يزيدوا في حياته نفساً، ولا أن يدفعوا عنه موعداً، ولا أن يقوموا معه في قبره.

فكيف يهبهم من الخضوع ما لا يستحقه إلا الله؟

ثم يأتي التنزيه: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. تنزه الله وارتفع عن أن يكون له ندُّ أو شبيهه أو شريك. فالتوحيد ليس مجرد تقرير أن الله أقوى من آلهتهم؛ بل تقرير أن المقارنة من أصلها باطلة. ليس بين الخالق والمخلوق اشتراك في مقام الألوهية حتى يُقال: هذا أقوى من ذاك. الله هو الخالق، وما سواه خلقه؛ هو الغني، وما سواه مفتقر إليه. وبين المقامين فرقٌ لا يعبره خيال.

المشهد السابع والعشرون

حين يخرج فساد القلب إلى البر والبحر

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾.

الفساد يبدأ فكرةً في القلب، ثم لا يلبث أن يخرج من الداخل حتى يظهر في وجه الأرض. طمعٌ صغير في نفس إنسان قد يصير نظاماً يذهب أمة. كبرٌ في صدر حاكم قد يصير حرباً تملأ المدن بالدم. شهوةٌ ربح لا يضبطها ضمير قد تفسد ماءً وهواءً وتربة. كذبةٌ تتكرر قد تصير وعياً عاماً مشوهاً.

ظلمٌ يُسكت عنه الناس قد يصبح مؤسسةً يصعب اقتلاعها. ولهذا قالت الآية: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾. كان أصله مستتراً في النوايا والاختيارات، ثم ظهر في البر والبحر. إن العالم الخارجي مرآةٌ مكبرة لما يسكن داخل الإنسان؛ فإذا فسد القلب الذي يمسك بالأدوات، صارت الأدوات، مهما بلغت دقتها، وسائل أكثر قدرةً على الإفساد. المشكلة ليست في قوة الإنسان وحدها، بل في اليد الأخلاقية التي توجه القوة. العلم يستطيع أن يصنع دواءً ويصنع سماً، والتقنية تستطيع أن تصل الناس وأن تتجسس عليهم، والثروة تستطيع أن تعمر مدينةً وأن تمول خرابها. الذي يحدد وجهة الوسيلة هو الإنسان الكامن خلفها.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

تردُّ الآية المسؤولية إلى فاعلها. فالناس يميلون إلى الحديث عن الفساد كأنه طقسٌ نزل عليهم من السماء، لا كأنه مجموعُ اختيارات شاركوا فيها: مسؤولٌ خان، وتاجرٌ غش، وعالمٌ سكت، وكاتبٌ زيف، ومواطنٌ رضي أن يأخذ نصيبه الصغير من الخطأ، ثم اشتكى من الجدار الكبير الذي صنعتها الصغيرة.

وليس معنى الآية أن كل كارثة طبيعية يمكن الجزم بأنها عقوبة مباشرة على ذنب معين؛ فهذا مما لا يُعلم بلا وحي. لكن الآية تقرر سنةً عامة: أن لأعمال البشر الأخلاقية والمادية آثاراً تتجاوز أصحابها، وأن المعصية ليست حدثاً معزولاً في زاوية النفس.

الذنب له صدى.

والظلم له مناخ.

والفساد إذا شاع لا يسأل قبل أذاه: من الذي بدأه؟

ثم قال: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾. بعضاً لا كلاً؛ لأن الله لو أخذ الناس بكل ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة. وما يقع من آثار الفساد إنذارٌ محدود أمام ما يستحقه الإنسان لو استوفى العدل كامل الجزاء في الدنيا.

غير أن الغاية ليست التشفي، بل الإيقاظ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

حتى الألم هنا بابٌ إلى الرحمة. يُري الله البشر بعض نتائج طريقهم، لعلهم يتوقفون قبل نهايته. تضيق الحياة بما صنعت أيديهم كي يعيدوا النظر في الذي تصنعه قلوبهم.

والمصيبة التي ترد الإنسان إلى الله قد تكون أرحم به من نعمةٍ تمده في الغفلة. ليس لأن الألم محبوب لذاته، بل لأن الرجوع الذي يولد منه قد ينقذ العمر كله.

مرةً أخرى يظهر المعنى المركزي للسورة: الرجوع.

ترجع الحضارات عن فسادها، أو تسقط.

ويرجع القلب إلى فطرته، أو يتمزق خلف الهوى.

ويرجع الناس إلى ربهم مختارين بالتوبة، ثم يرجعون إليه اضطراراً بالبعث.

فكل طرق السورة تؤدي إلى الرجوع؛ وإنما الفرق: بأي قلب نرجع؟

المشهد الثامن والعشرون

الأرض ليست مكاناً للسير فقط، بل كتابٌ للعواقب

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

تكرر السورة دعوتها إلى السير في الأرض، لأن الإنسان شديد النسيان، والتاريخ أحد الكتب التي تمزق أو هام الخلود.

لكن القرآن لا يقول: سيروا لتسلوا، بل: ﴿فَانظُرُوا﴾. فليس كلُّ سير نظراً، ولا كلُّ عينٍ مبصرة. قد يقف الإنسان عند أطلال أمة عظيمة، فلا يرى إلا حجارةً تصلح لصورة، بينما يرى المؤمن وراء الحجارة قانوناً، ووراء الصمت مصيراً.

السياحة القرآنية ليست انتقال الجسد في المكان فحسب، بل انتقال العقل من الأثر إلى العاقبة.

هنا كانت مدينة تضج بالحياة.

هنا كان ملكٌ يخشى.

هنا كانت أسواقٌ يتنافس فيها الناس كما لو أنهم خالدون.

هنا أحبَّ أناسٌ، واختلفوا، وجمعوا الأموال، وبنوا الجدران.

ثم أين هم؟

بقي ما عمره، وذهب الذين ظنوا أن العمران يحفظهم. صاروا خبراً بعد أن كانت الأخبار تدور حولهم، وصاروا عبرةً بعد أن كانوا يظنون أنفسهم استثناءً من سنن الزوال.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

والشرك فسادُ التصور الأول؛ لأنه يوزع خصائص الربوبية على ما لا يملكها، ثم يبني على ذلك فساد الحياة. فإذا خضع الإنسان لغير الله خضوع العبادة، أمكن لذلك الغير أن يشرع له الظلم، ويزنّ له العدوان، ويطلب منه أن يضحى بالحق في سبيل بقائه.

وما من حضارةٍ تجعل قوتها إلهاً إلا وتبدأ القوة نفسها في أكلها من الداخل. لأنها لا تعود ترى قيمةً فوق البقاء، ولا حقاً فوق المصلحة، ولا حدّاً يقف عنده البطش. السير في الأرض لا يعلننا أن الحضارات تسقط فقط؛ فهذه حقيقة يعرفها الجميع. بل يعلننا أن نسأل: لماذا سقطت؟ وما الذي كان ينخر روحها وهي تبدو في ذروة الصلابة؟ فالانهيار يُرى في النهاية، لكنه يبدأ قبل ذلك بزمانٍ طويلٍ في الضمير.

المشهد التاسع والعشرون

أَقِمَّ وَجْهَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي لَا يُرَدُّ

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾.

تتكرر دعوة إقامة الوجه، لكنها هذه المرة متصلة بموعِدٍ يقترب: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾.

فالتوبة لها زمن، والعمل له فرصة، والاختيار له باب؛ وليس الباب مفتوحاً إلى ما لا نهاية. من رحمة الله أنه يمهل، ومن حكمته أنه جعل للإمهال أجلاً.

إن أخطر كلمةٍ يخدع بها الإنسان نفسه: «لاحقاً».

سأتوب لاحقاً.

سأردُّ الحق لاحقاً.

سأصلِّ رجلي لاحقاً.

سأعتذر حين يهدأ كل شيء..

سأقيم وجهي لله بعد أن أفرغ من الدنيا.

لكن الدنيا لا تفرغ، والعمر هو الذي يفرغ.

كلما انتهى شاغلٌ ولد شاغلٌ، وكلما ظن الإنسان أنه وصل إلى مساحةٍ يستطيع فيها أن يعود، رأى الطريق يفتح له حاجةً جديدة. فإذا لم يجعل لله وقتاً وسط الحياة، فلن تمنحه الحياة وقتاً بعد نهايتها.

﴿يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

لا يملك جيشٌ دفعه، ولا مالٌ تأخيرَه، ولا علمٌ إلغاءَه. لقد ردَّ البشر في الدنيا مواعيد كثيرة، وأجلوا قضايا، وأفلت بعضهم من محاكم الأرض؛ أما ذلك اليوم فلا يملك أحدٌ أن يردّه.

ثم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾؛ يتفرقون ويتشقق جمعهم إلى مصائر شتى. إن الحياة تجمع الناس في أماكن مشتركة، لكن القيامة تفرقهم بحسب حقائقهم. ينصدع الجمع الكبير، ويذهب كل امرئ إلى ما قدم.

وفي لفظ ﴿يَصْدَعُونَ﴾ إichاء بأن الاجتماع الذي بدا صلباً سيتشقق. أحزاب وقبائل وتحالفات وصداقات ومصالح؛ كل ما جمع الناس على غير الله تنصدع روابطه حين يأتي أمر الله.

لا يبقى إلا الرابط الذي عقده الإيمان وصانه العمل الصالح.

المشهد الثلاثون

كُلُّ إِنْسَانٍ يَمَّهْدُ مَوْضِعَهُ فِي الْأَبَدِ

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ.

تضع السورة الإنسان أمام مسؤوليته الفردية: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾.

على نفسه يقع الثقل، وفي قلبه يبدأ الخراب، وإليه ترجع العاقبة. فالكفر لا يضر ملك الله شيئاً؛ لا ينقص من سلطانه، ولا يطفئ من نوره. إنما يحرم الكافر نفسه من النور، كمن أغلق نافذته ثم ظن أنه أطفأ الشمس.

أما الذين عملوا الصالحات: ﴿فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾.

يا لها من صورة دافئة! إنهم يهيئون لأنفسهم موضع الراحة قبل الوصول، كما يمهّد الإنسان فراشه ليستقر عليه. كل عمل صالح يُرسل إلى الآخرة يشارك في إعداد ذلك المقام. حين تصبر، فأنت تمهّد.

حين تكظم غيظك لله، فأنت تمهّد.

حين تحفظ لسانك عن عرض أخيك، فأنت تمهّد.

حين تواسي من لا يستطيع مكافأتك، فأنت تمهّد.

حين تقوم إلى الصلاة وقد أثقلتك التعب، فأنت تمهّد.

وحين تترك ذنباً تحبه لأن الله لا يحبه، فأنت تمهّد مكاناً لا خوف فيه من فقد ولا تعب.

إن الإنسان في الدنيا يؤثث بيوته بعناية، ويختار ما يريح جسده في إقامة قصيرة، لكنه قد ينسى أن يمهّد مقامه الطويل. وما قيمة سريرٍ وثير في دنيا عابرة إذا صنع المرء لنفسه مضجعاً من الندم في الأبد؟

ثم قالت الآية: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

لم تقل: بعدله وحده، بل ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ لأن العمل، مهما عظم، لا يساوي نعم الله السابقة، ولا يشتري الجنة ثمنًا مكافئًا. يهديك للعمل، ويعينك عليه، ثم يقبله منك، ثم يجزيك فوقه؛ فضلٌ يحيط بالعمل من بدايته إلى نهايته.

فالعبد لا يدخل على الله مزهواً بطاعته، بل منكسراً شاكراً. يعلم أن صلاته نفسها عطية، وأن دمة خشيته رزق، وأن قدرته على ترك الحرام توفيق.

العمل سبب، أما النجاة فبرحمة الله وفضله.

المشهد الحادي والثلاثون

الرياح: رسائل الرحمة التي لا تُرى

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بعد الحديث عن تفرق الناس يوم القيامة، تفتح السورة نافذةً على الهواء المتحرك بين السماء والأرض: الرياح.

لا نرى الريح، لكننا نرى الأشجار تنحي لمروها، ونرى الغبار يرتفع، والسحاب يُساق، والسفن تمضي. وهذه صورةٌ تربّي القلب على إدراك الأثر وإن غاب المؤثر عن الحس. فليس كل ما لا تراه معدومًا، وليس عالم الشهادة حدّ الوجود.

﴿يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾.

قبل أن ينزل المطر، تصل البشارة. تهب الرياح محملةً برائحة الأرض المقبلة على الحياة، فيرفع الناس أبصارهم إلى السماء. وكأن الرحمة لا تأتي فجأةً دائمًا؛ قد ترسل أمامها نسيمات تهئ القلب.

بشارةٌ في كلمة.

وبشارةٌ في تيسيرٍ صغير.

وبشارةٌ في سكينه تنزل قبل انكشاف الكرب.

وبشارةٌ في بابٍ يفتح قليلًا ليقول لك: إن الجدار ليس أبدئيًا.

لكن الإنسان قد يكون شديد الانشغال بالحنّة، حتى تمرّ بشار الفرج من حوله فلا يشعر بها. يحتاج القلب إلى حاسةٍ روحيةٍ تلتقط رائحة المطر قبل نزوله.

﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

مرةً أخرى يأتي الذوق: إن ما نتقلب فيه من رحمة الدنيا ليس إلا مذاقاً يسيراً من رحمته الواسعة. الهواء الذي يلامس الوجه، والسحاب الذي يظلل، والمطر الذي يسقي، والبحر الذي يحمل؛ كلها قطراتٌ من فيض لا ينفد.

ثم تجتمع الآية بين الرحمة والرزق والحركة:

﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾.

الريح سبب، والشرع سبب، وخبرة البحار سبب؛ لكن الفلك تجري بأمره. وهذا هو التوازن القرآني الدقيق: لا يلغي الأسباب، ولا يؤلّهاها. يراكب الإنسان السفينة، ويحكم صنعها، ويدرس البحر والرياح، ثم يعلم أن انتظام الأسباب نفسه أمرٌ من الله.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

فتتحول الرياح إلى قوةٍ تحمل السفن، وتصل البلدان، وتفتح أبواب التجارة والرزق. الهواء الذي لا يباع يحمل فوقه من الأموال ما لا تحمله خزائن؛ كأن الله يسخر أكثر الأشياء خفاءً لحمل أكثر الأشياء ثقلاً.

لكن الغاية الأخيرة ليست المال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ترسل الرياح، وينزل المطر، وتجري السفن، ويأتي الرزق؛ ثم يجب أن تصل الرحلة كلها إلى القلب في صورة شكر. فإذا توقفت عند المخازن والأسواق، ولم تبلغ السجدة، فقد ضاعت الغاية من صاحبها وإن وصلت إليه النعمة.

الشكر ليس كلمةً في آخر العطاء فحسب؛ إنه أن تستعمل الرحمة في مرضاة الرحيم. فشكر المال بذله في الحق، وشكر العلم نشره، وشكر القوة حماية الضعيف، وشكر البيان نصرة الصديق، وشكر الرياح أن ترى وراء حركتها أمر الذي أرسلها.

وهكذا تمضي سورة الروم في نقل الإنسان من ظاهر الظاهرة إلى باطن الدلالة: لا تقف عند الريح، بل انظر إلى المرسل؛ ولا تقف عند السفينة، بل انظر إلى الأمر الذي أجراها؛ ولا تقف عند الرزق، بل انظر إلى الفضل؛ ولا تقف عند النعمة، بل امض بها حتى تبلغ مقام الشكر.

المشهد الثاني والثلاثون

حين يأتي النصر بعد أن يطول الطريق

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ لِحُجَّائِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

تعود السورة من حركة الرياح والسفن إلى حركة الرسالات في التاريخ. وكأنها تقول: كما أن للكون سنناً تحمل السحاب وتجري الفلك، فللدعوات أيضاً سننٌ تمضي، وإن تأخر ظهورها. لم يكن محمد ﷺ أول رسول يقف في مواجهة التكذيب، ولم تكن قريش أول قوم يضيقون بالنور. قبله رسلٌ حملوا البينات إلى أقوامهم، وقبل المؤمنين الأوائل مؤمنون ذاقوا الغربة والأذى، ورأوا الباطل عالياً حتى ظنَّ ضعفاء البصيرة أنه لن يخفّض.

إن استحضار تاريخ النبوة ليس سرّاً للماضي، بل تثبيتٌ للحاضر. حين يعرف الداعية أن الطريق الذي يؤله قد مشّت فيه أقدام الأنبياء، يتغير معنى الألم عنده؛ لا يعود علامةً على ضياع الطريق، بل قد يكون شاهداً على أنه الطريق نفسه.

﴿لِحُجَّائِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

كان محيي الرسل واضحاً في حجته، نقيّاً في غايته. لم يتركوا أقوامهم في غموض، ولم يطلبوا منهم اتباع الظن؛ بل جاؤوهم بما يبين الحق. لكن المشكلة لم تكن دائماً في غياب البرهان، بل في وجود مصالح تخشى البرهان.

فالطغيان لا يكره الحقيقة لأنها غامضة، بل لأنه فهمها وعرف ما ستزعه من سلطانه. والمترف لا يرفض الهدى لأنه لم يتضح، بل لأنه أدرك ما سيطلبه منه من عدلٍ وبذل. وصاحب الهوى قد لا يجهد طريق الله، لكنه يعلم أن دخوله يحرمه من شهوة ألقها. ثم تقول الآية: ﴿فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.

والانتقام الإلهي ليس ثورة غضبٍ بشري يختلط فيها العدل بالهوى؛ تعالى الله عن ذلك. إنه جزاءٌ بالحق بعد البيان والإمهال، يقع بعلمٍ كامل لا يظلم مثقال ذرة.

ثم تأتي الجملة التي تتلأأ في قلب السورة كما تتلأأ نجمة فوق ليل طويل:
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

حقاً أوجبه الله على نفسه فضلاً وكرماً، لا حقاً يفرضه عليه أحد. وإذا تكفل الله بشيء، فمن ذا الذي يمنعه؟

لكن النصر في القرآن أوسع من صورة واحدة. قد يكون تمكيناً ظاهراً، وقد يكون ثباتاً لا يستطيع العذاب أن ينتزعه من القلب، وقد يكون نجاةً من الفتنة، وقد يكون هلاك الظالم بعد موت المؤمن، وقد يكون بقاء الرسالة بعد فناء من حاربوها، ثم تمام النصر في الآخرة. ليس كل من قُتل مهزوماً، ولا كل من بقي غالباً.

كم من شهيد أسقط بدمه إمبراطورياتٍ من الوهم!

وكم من طاغيةٍ جلس على عرشه، لكنه كان يعيش أيامه الأخيرة في ذاكرة التاريخ! المنتصر حقاً هو من لم يستطع الباطل أن يغيّر قبلته، وإن غيّر مكانه، وأخذ ماله، وأتعب جسده. والمهزوم حقاً هو من ربح العالم وخسر نفسه.

ومع ذلك لا تمنع هذه السعة أن يطمع المؤمنون في نصر الله في الأرض، وأن يعملوا له، ويعدّوا أسبابه، ويقاوموا الظلم. لكنها تمنعهم من اختزال وعد الله في توقيتهم وصورتهم وحدهما.

قد يكون النصر في الطريق، لكن القلوب تستعجله. وقد تكون الهزيمة الظاهرة فضلاً من صناعته.

وقد تكون سنوات الانتظار هي التي تبني في المؤمنين الأهلية لحملة.

إن نصراً يأتي قبل نضج أصحابه قد يتحول في أيديهم إلى فتنة؛ لذلك يريهم الله قبل أن يمكّنهم، ويهذب دوافعهم، ويفصل في قلوبهم بين الرغبة في نصره الحق والرغبة في الانتصار للنفس.

المشهد الثالث والثلاثون

كيف تصنع الغيمة؟

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا قَرَى
الْوَدْقَ يُخْرِجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

تجعلنا الآية نفق تحت السماء لنشاهد ولادة الغيمة مرحلة مرحلة.

يرسل الله الرياح.

فتثير سحباً.

فيبسطه في السماء.

ويجعله قطعاً.

ثم يخرج المطر من خلاله.

إن المشهد الذي تراه العين لحظة نزول المطر وراءه تدير متدرج، بدأ قبل أن يرفع الإنسان رأسه إلى السماء. كانت الأسباب تتحرك، والسحب تتجمع، والرحمة تتشكل في مكان بعيد، بينما أهل الأرض لا يرون إلا امتداد الجفاف. وهكذا كثير من أقدار الله.

تدعو ولا ترى إجابة، لكن رياح التدبير قد أرسلت.

تنتظر ولا يظهر التغيير، لكن السحاب قد بدأ يتكون.

تحسب أن السماء خالية، بينما الرحمة تبسط فيها على هيئة لم تتضح بعد للمشاهدة.

إن غياب المطر عن عينك لا يعني أن مقدماته غائبة عن قدر الله.

قال: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. لا كما يشاء الناس، ولا في الوقت الذي يحددونه،

ولا بالهيئة التي يسمونها. للرحمة توقيتها، وللسحاب مساره، والله في طريقة إنزال عطائه حكمة.

نحن نريد الغيث من أقصر الطرق، لكن الله قد يرسله في رحلة طويلة، لأن المقصود ليس أن تصل العطية فقط، بل أن يتربى القلب في انتظارها.

﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾؛ قطعاً متفرقة، قد لا يرى الناظر في كل واحدة منها ما يكفي لإحياء الأرض، ثم يجمع الله من المتفرق أثراً. وكم من نصرٍ بدأ بإشارات متناثرة لا يبدو بينها رابط، ثم جمعتها الحكمة حتى صارت تحولاً كبيراً! ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾.

ترى المطر يخرج من خلال السحاب. يخرج الفرج من خلال الشيء الذي كان يحجب عنك السماء، كأن الغيمة المظلمة لم تكن حاجزاً للنور وحده، بل كانت تحمل الماء. بعض الغيوم التي تظلل حياتنا لا تأتي لتخفي الشمس فقط؛ قد تكون ممثلةً بغيثٍ لم يحن نزوله.

ثم: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

في لحظة واحدة ينقلب وجه الأرض ووجه الإنسان. كانت العيون تراقب التراب المتشقق، ثم إذا القطرات تقع، وإذا البشارة تسبق الخضرة. لم تنبت الأرض بعد، لكنهم استبشروا؛ لأن المؤمن بالسنن يرى الثمرة في مقدمتها. لقد علمهم المطر أن القطرة وعدٌ بالشجرة. كما علمتهم السورة أن خبر الله وعدٌ بالنصر. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلٍ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ﴾.

تكرر «من قبل» ليصور شدة قرب اليأس من الفرج. كانوا قبل نزول المطر بلحظات في إبلاس، ثم انقلب كل شيء. لم تكن بينهم وبين البشارة مسافة كبيرة، لكنهم لم يكونوا يعلمون.

كم مرة يطرق الفرج الباب في اللحظة التي يكون فيها الإنسان مشغولاً بإعلان اليأس! وكم تكون المسافة بين ﴿لُمُبْلِسِينَ﴾ و﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ** قطرة واحدة! فلا تجعل شعورك بانسداد الطريق دليلاً على أن الطريق مسدود في قدر الله.

المشهد الرابع والثلاثون

انظر إلى آثار الرحمة

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لم تقل الآية: انظر إلى المطر فحسب، بل قالت: ﴿إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾.

فالمطر أثر، والخضرة أثر، وانشقاق الحبة أثر، وامتلاء الضرع أثر، وعودة الحياة إلى وجوه الناس أثر. أما الرحمة نفسها فأوسع من هذه الصور جميعاً.

إننا لا نحيط برحمة الله، لكننا نراها في آثارها:

في بابٍ فُتِحَ بعد انغلاق.

وفي ذنبٍ ستره الله.

وفي قلبٍ عاد بعد قسوة.

وفي بلاءٍ منع بلاءً أكبر.

وفي إنسانٍ أرسله الله إليك في ساعة وحدتك.

وفي قوةٍ نزلت عليك يوم ظننت أنك لن تستطیع احتمال المزيد.

وفي صباحٍ جاء بعد ليلةٍ حسبتها لا تنتهي.

وإذا طلبت من قلبك أن ينظر إلى رحمة الله مباشرةً فقد يعجز عن الإحاطة، لكن قل له:

انظر إلى آثارها المنتشرة في تاريخك. كم مرة حملك الله دون أن تشعر؟ وكم خطرٍ صرفه فلم

تعلم به؟ وكم دعاءٍ أجابه في صورةٍ غير التي اقترحتها؟

إن المشكلة ليست قلة آثار الرحمة، بل قلة النظر.

فالإنسان يحفظ ما فقده، وينسى كثيراً مما نجا به. يعدّ الأبواب المغلقة، ولا يحصي النوافذ

التي بقيت مفتوحة. يتذكر يوم مرضه، وقد ينسى آلاف الأيام التي تحرك فيها جسده في

عافية.

﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ليس الأمر مجرد إثبات للحياة، بل دعوة إلى تأمل الكيفية الظاهرة في تحول المشهد: لَوْنٌ بعد لَوْنٍ، ورائحةٌ بعد رائحةٍ، وحركةٌ بعد سكون. كانت الأرض لوحةً بلون الموت، ثم مرّت عليها الرحمة، فتعددت الألوان.

وكذلك القلب؛ لا تحييه الهداية في جانب واحد. إذا دخل النور حقاً، تغيّر خوفه ورجاؤه، وحبّه وبغضه، وكلامه وصمته، ونظرته إلى نفسه وإلى العالم.

ثم تقطع الآية الطريق على استبعاد البعث: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾. الذي أحيا الأرض هو نفسه محيي الموتى، لا نتعدد عليه القدرة، ولا يحتاج إلى تجربةٍ جديدة. وما تراه في الربيع نموذجٌ أرضي للحشر الآتي.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

على كل شيء، بما فيه الشيء الذي استبعده عقلك، والباب الذي حكمت باستحالة فتحه، والقلب الذي ظننته لا يهتدي، والواقع الذي بدا متحجراً، والجسد الذي صار تراباً. قدرة الله لا تقف عند حدود احتمالك أنت.

المشهد الخامس والثلاثون

نفوسٌ تنسى الرحمة عند أول ريحٍ

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

ما أسرع تقلب الإنسان الذي لم يرسخ الإيمان في قلبه!

رأى الأرض تحيا، واستبشر بالمطر، ولمس آثار الرحمة؛ ثم تهب ريح، ويرى الزرع مصفراً، فإذا هو يعود إلى الجحود. كأن تاريخ الرحمة كله مُحي من ذاكرته عند أول تغير في المشهد. قال: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾؛ رأوا النبات بعد خضرته قد اصفر. والاصفرار مرحلةٌ تنتقل فيها العين من بشارة الحياة إلى نذير الذبول. لكن المؤمن يعلم أن الذي أحيا أول مرة قادراً على أن يحيي مرةً أخرى، وأن تقلب الفصول لا يعني غياب ربها. أما القلب المرتبط بالظاهر، فإنه يعبد اللون الحاضر: إذا اخضرت الحياة آمن بالرحمة، وإذا اصفرت أنكرها.

وكم فينا من هذا الاضطراب!

إذا نجحنا قلنا: إن الله كريم.

فإذا تعثرنا عاملنا التعثر كأنه دليل هجران.

إذا أقبل علينا الناس شعرنا بقيمتنا.

فإذا انصرفوا توهمنا أننا فقدناها.

إذا استقامت الأسباب اطمأننا.

فإذا اختلت، كأن رب الأسباب لم يعد موجوداً!

الإيمان الحق لا يعني أن القلب لا يحزن حين يرى اخضرار آماله يذبل؛ بل يعني أن الحزن لا يتحول إلى سوء ظن بالله، وأن اصفرار المشهد لا يحو من الذاكرة مواسم الخضرة السابقة. إن الله يربي المؤمن على الثبات أمام الألوان المتغيرة؛ لأن الحقيقة لا تبدل كلها تبدل لون الحقل.

﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ . في اللفظ تصويرٌ لاستمرار الجحود؛ كأنهم يقيمون داخل رد الفعل ولا يغادرونه إلى التأمل. رأوا ريثماً واحدة، فجعلوها تفسيراً للوجود كله. ومن ظلم العقل أن يجعل الإنسان حادثةً واحدة مفتاحاً لكل حكم، وينسى تاريخاً كاملاً من اللطف.

المشهد السادس والثلاثون

ليست المشكلة في الصوت، بل في القلب الذي مات

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ.

بعد كل هذه الآيات، قد يسأل القلب: كيف لا يؤمنون؟ كيف يرون خلق الإنسان، والمودة بين الزوجين، واختلاف الألسن والألوان، والنوم والبرق والمطر، وإحياء الأرض، ثم يمضون كأنهم لم يروا شيئاً؟

الجواب: لأن المشكلة ليست دائماً في قلة العلامات، بل في موت جهاز الاستقبال داخل الإنسان.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾.

وصف القرآن الأحياء المعرضين بالموت؛ لأن الحياة الحقيقية ليست حركة الجسد وحدها. قد يأكل الإنسان ويمشي ويتكلم، بينما موضع الاستجابة للحق فيه قد نحمد الجسد حي، لكن القلب لا يتأثر بنداء السماء.

وما أقسى أن يظن الإنسان أنه حي لأنه يتحرك، بينما تمر به الآيات فلا توقظه، والمواعظ فلا تحركه، والموت يخطف من حوله فلا يغير مساره!

﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ﴾.

اجتمع فيهم صمم وإدبار. فلو كان الأصم مقبلاً، لأمكن أن يرى الإشارة، لكنه أصم وولّى ظهره. إنها صورة من أغلق منافذ الهداية كلها: لا يسمع النداء، ولا يلتفت إلى الداعي. والإدبار هنا موقفٌ إرادي. إنهم لم يُحرّموا من الحق قبل أن يرفضوه، بل أعرضوا حين جاءهم. ولذلك لا يحمل النبي ﷺ وزر عدم استجابتهم؛ مهمته البلاغ، أما فتح القلوب فإلى الله.

وهذه الآية مواساةً لكل من يحمل كلمة حق، ثم يتألم لأن القلوب لم تتغير كما أراد. لست مالك الهداية. عليك أن تصدق، وتبين، وترفق، وتصبر؛ لكنك لا تستطيع أن تخلق في القلب إرادة القبول.

قد تفتح النافذة، لكنك لا تخلق الشمس.

وقد تدل على الطريق، لكنك لا تحمل الأقدام إليه.

وقد تسقي البذرة، لكن الله وحده يخرج الحياة منها.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾.

فالعمي الذي اختار صاحبه أن يحافظ عليه لا تنزله كثرة الصور. ولو كان نقص الأدلة هو

المشكلة، لكفتهم آية واحدة؛ لكن الهوى يستطيع أن يمر بين ألف آية دون أن ينحني.

ثم يبين من ينتفع بالسمع: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾. إنهم الذين

يحملون استعداد القبول، فلا يسمعون ليغلبوا المتكلم، بل ليسلموا للحق إذا عرفوه.

والإسلام هنا ثمرة السماع الحقيقي. ما دخل الأذن يعبر إلى القلب، وما دخل القلب يظهر

خضوعاً في الحياة. أما المعرفة التي لا تنزل الرأس لله، فقد بلغت الذاكرة ولم تبلغ الروح.

المشهد السابع والثلاثون

سيرة الإنسان بين ضعفين

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

في أول السورة رأينا حضارةً تغلب ثم تغلب، والآن نرى في جسد الإنسان القانون نفسه: ضعف، ثم قوة، ثم ضعف.

كأن الجسد إمبراطورية صغيرة تمر بمراحل الصعود والانحدار. يبدأ طفلاً لا يستطيع أن يرفع رأسه، ثم يشتد عوده، ويمتلئ بالحركة، ويحسب أن القوة طبيعته الدائمة، ثم تسلس الشيخوخة إلى أطرافه؛ فيبطئ ما كان سريعاً، ويضعف ما كان شديداً، ويظهر الشيب على الرأس رسوياً أبيض من جهة النهاية.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾.

لم يقل: ضعفاء فقط، بل ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾؛ كأن الضعف هو المادة التي بدأت منها الرحلة. جنين في ظلمة، ثم رضيع لا يملك طعامه ولا تنظيف جسده ولا دفع أذى عنه. كانت حياته معلقة برحمة غيره في كل تفصيل. ثم: ﴿جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾.

لم يصنع الإنسان قوته بنفسه؛ إنها جعلت فيه. نما العظم دون أمره، واشتدت العضلة بتقدير الله، واتسع عقله بالتجربة. ومع ذلك، حين يصل إلى القوة قد ينسى اليد التي أخرجته من الضعف.

إن القوة أشد امتحاناً من الضعف أحياناً. فالضعيف يرى حاجته، أما القوي فقد تحجبه النعمة عن المنعم. يظن أن صوته العالي دليل استقلاله، وينسى الأيام التي كان فيها لا يملك إلا البكاء.

ثم: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾.

ينحني القوس عائداً إلى نقطة تشبه البداية. يحتاج الشيخ إلى من يعينه كما احتاج الطفل، لكن الفرق أن الطفل يمضي نحو القوة، والشيخ يمضي نحو الرحيل.

والشبية ليست مجرد تغير في لون الشعر؛ إنها كتابة الزمن على الجسد. كل شعرة بيضاء تقول: إن القوة كانت ضعيفة، وإن الأيام لا تمر من حولك فقط، بل تمر فيك.

وليس في هذا إهانة للإنسان، بل تحريراً له من غرور المرحلة. فالقوة ليست هويته الكاملة حتى ينهار بفقدائها، والشباب ليس قيمته حتى يشعر أن الشيب سرقها. قيمة الإنسان في عبوديته وما قدم، لا في صلابة جسد سيضعف حتماً.

وقد يكون ضعف الشيخوخة باباً لقوة أخرى: قوة البصيرة، ونضج الحكمة، وخفة التعامل بالدينيا. حين تخفت ضوضاء الجسد، قد يسمع القلب ما لم يكن يسمعه في صخب الشباب.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾. تنوع الأعمار والقوى والأحوال بمشيئته. لا يسير كل إنسان في النسخة نفسها من الحياة، لكنه سبحانه يعلم سر كل مرحلة: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

عليم بما يتركه الضعف فيك.

عليم بفتنة القوة عليك.

عليم بوجع الشيب حين ترى الأشياء تنسحب من يدك.

قدير على أن يجعل في ضعف الجسد قوة للإيمان، وفي خريف العمر موسماً لأجمل الثمر.

المشهد الثامن والثلاثون

يوم تسقط مقاييس الزمن

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

حين تقوم الساعة، تنكمش الدنيا في ذاكرة المجرمين حتى يقسموا أنهم لم يلبثوا إلا ساعة. تلك الحياة التي ملأت عيونهم، وخلصوا من أجلها، وظلموا ليملكوا منها المزيد؛ تصير عند رؤية الأبد لحظة خاطفة.

ما أقصر الدنيا حين تُرى من آخرها!

السنوات التي بدت طويلة وهي تمر، تصبح ومضة بعد انقضائها. وكم من حزنٍ ظن صاحبه أنه لن ينتهي، ثم صار ذكرى بعيدة! وكم من لذة استولى طلبها على العمر، ثم لم يبق منها إلا أثرٌ في صحيفة!

﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

لقد باعوا الباقي بالعابر، فلما رأوا الباقي أدركوا ضلالة الثمن الذي قبضوه. كانت الدنيا في أعينهم كبيرة لأنها حجت الآخرة؛ فلما ظهرت الآخرة، عادت الدنيا إلى حجمها الحقيقي. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾؛ كما صُرفوا عن تقدير الزمن حق قدره، كانوا يُصرفون عن الحق في الدنيا. عاشوا داخل تصورٍ مقلوب: جعلوا الساعة الفانية أصلاً، والأبد الباقي هامشاً؛ فلما قامت الساعة انقلب الميزان إلى وضعه الصحيح.

ثم يتكلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾.

جمع الله بين العلم والإيمان؛ لأن العلم بلا إيمان قد يعرف تفاصيل الظاهرة ويغفل عن غايتها، والإيمان الصادق لا يعادي العلم، بل ينيره ويضعه في موضعه.

قالوا: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾؛ أي وفق ما كتبه الله وقدره إلى هذا اليوم. لم تكن الحقيقة مجهولةً من جهة البيان، بل كانوا هم الذين لم يتعلموا منها.

﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾.

هذا هو اليوم الذي سخرتم منه.

هذا هو الخبر الذي عدَّ عندكم بعيداً.

هذا هو الموعد الذي جاءت الأرض الميتة دليلاً عليه.

هذا هو الرجوع الذي أخبرتكم به السورة منذ بدايتها.

﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كانوا يعرفون ظاهراً من الحياة الدنيا، لكنهم لا يعلمون الحقيقة التي تمنح الظاهر معناه. عرفوا

حساب الأيام، ولم يعرفوا وزنها. عرفوا كيف يملؤون الوقت، ولم يعرفوا كيف ينقذونه.

إن اليوم لا يطول بعدد ساعاته، بل بما يُودع فيه من معنى. وقد يعيش إنسان سنواتٍ كثيرة

ثم يأتي الله وليس له من عمره إلا لحظات صدقٍ قليلة، ويعيش آخر عمراً أقصر لكنه مملأه

بما يبقى.

ليست المأساة أن الحياة قصيرة؛ بل أن يكتشف الإنسان قصرها بعد أن أنفقها فيما لا ينفع.

المشهد التاسع والثلاثون

حين لا ينفع الاعتذار ولا يُطلب الرجوع

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

في الدنيا متسعٌ للاعتذار الصادق، والتوبة، وإصلاح ما انكسر. أما في ذلك اليوم فقد خرج الإنسان من زمن العمل إلى زمن الجزاء.

﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾.

ربما كانت لهم أَعذارٌ كثيرة في الدنيا: ضغط الواقع، وخوف الناس، وقوة العادة، وإغراء المصلحة، وتأجيل التوبة. لكن الأَعذار التي بدت كبيرة تحت ظلال الدنيا تتضاءل في نور القيامة؛ لأن الله كان يعلم القدرة التي منحهم، والفرص التي فتحها، والإنذارات التي أرسلها.

إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولذلك لا يحاسبها إلا على ما كان في وسعها. ومن هنا يسقط الاعتذار؛ لا لأن الله لا يسمع، بل لأنه يعلم أن الحجة قامت وأن الاختيار وقع.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ لا يُطلب منهم أن يسترضوا ربهم بالرجوع إلى الطاعة، فقد انتهت ساحة الاختبار. في الدنيا كان الله يستعيتهم بمعنى يفتح لهم أبواب العودة: يرسل آية، ويوقظهم بمصيبة، ويمهلهم بعد الذنب، ويبعث في القلب ندماً.

أما هناك، فلا عودة إلى الأرض لإصلاح السيرة.

وهذه الآية لا تريد أن تغلق الأمل في وجه الحي؛ بل أن توقظه قبل أن يُغلق الباب. ما دمت تقرأها فأنت في زمن الاعتذار النافع، وفي زمن التوبة التي تبدل السيئات حسنات. لا تقل: فات الأوان، ما دامت الروح فيك.

إنما يفوت الأوان حين يصير الندم خبراً لا عمل بعده.

المشهد الأربعون

قرآنٌ نوع البراهين وقلبٌ اختار المكابرة

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۚ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

تأملت السورة مع الإنسان التاريخ والكون والنفس. ضربت له مثلاً من نفسه، وأرته التراب والحب واللغة والنوم والبرق والمطر والرياح والسحاب، وأعادته إلى آثار الأمم، وذكرته بمراحل عمره، وصوّرت له البعث.

لقد تنوّعت أبواب البرهان؛ لأن النفوس تختلف في مداخلها. قلبٌ يوقظه مشهد المطر، وعقلٌ تحرّكه حجة البدء والإعادة، ونفسٌ تهزها صورة الضعف والشيب، وروحٌ تفتحها آية المودة والرحمة.

﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ تنوعٌ في البيان لا يترك لطالب الحق عذراً. لكن المعاند لا يطلب مزيداً من الدليل ليؤمن، بل ليواصل التأجيل. فإذا جاءته الآية قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

إنه لا يناقش البرهان، بل يتهم حامله. حين يعجز عن مواجهة النور يرمي المصباح، وحين لا يستطيع نقض الرسالة يطعن في الرسول.

وهذه طبيعة المكابرة: الحكم جاهزٌ قبل النظر. ولو جاءتها كل آية لوجدت اسماً جديداً تضعه عليها كيلا تستجيب. المشكلة لم تعد: ماذا قيل؟ بل: إن القلب قرر ألا يسمع.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الطبع نهاية مسارٍ طويل من الإعراض. كل مرة يرد فيها الإنسان الحق لهوى، يترك الردُّ طبقةً على القلب. ثم تراكم الطبقات، حتى يصعب على النور أن ينفذ.

لم يبدأ القلب مختوماً؛ بل ختمته اختيارات صاحبه جزاءً وفاقاً. فالله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ولذلك كان الخوف الحقيقي ليس أن تجهل مسألة، بل أن تفقد إرادة التعلم، وأن يتحول جهلك إلى كبرٍ يمنعك من السؤال. فالجاهل المتواضع قريبٌ من العلم، أما الجاهل الذي يظن نفسه مكتفياً فقد أغلق الباب من الداخل.

المشهد الحادي والأربعون

خاتمة الطريق: فاصبر

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

هنا تبلغ السورة غايتها.

بعد الروم وفارس، وبعد قيام الحضارات وسقوطها، وبعد دلائل الخلق والبعث، وبعد المودة والرحمة، واللغات والألوان، والنوم والرزق، والبرق والمطر، والرياح والسحاب، والضعف والقوة والشيب؛ تنتهي الرحلة بكلمة واحدة جامعة:

﴿فَاصْبِرْ﴾.

كأن كل ما سبق كان بناءً لهذه الكلمة.

اصبر؛ لأن الروم غُلبت ثم غلبت.

اصبر؛ لأن الأرض ماتت ثم اخضرت.

اصبر؛ لأن الرياح تتحرك قبل أن ترى السحاب.

اصبر؛ لأن المطر يُصنع في السماء بينما أهل الأرض مبلسون.

اصبر؛ لأن الله يبدأ الخلق ثم يعيده.

اصبر؛ لأن للمفسدين أجلاً، وللمؤمنين نصراً.

اصبر؛ لا لأن الطريق سهل، بل لأن ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

فالصبر في القرآن ليس قدرةً نفسيةً مجردة، ولا تعجباً للألم، ولا استسلاماً للباطل. إنه ثباتٌ

تولّده معرفة: أعرف من وعدني، ولذلك لا أنهار تحت ضغط التأخير.

الذي يصبر اعتماداً على قوته قد تنفذ قوته.

أما الذي يصبر اعتماداً على وعد الله، فإنه يستمد من مصدرٍ لا ينفد.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

هو حقٌّ حين لا ترى مقدماته.

حقُّ حين تتجمع الجيوش ضدك.

حقُّ حين تبدو الأرض قاحلة.

حقُّ حين تتأخر الثمرة.

حقُّ حين يموت الصالح قبل أن يرى النصر.

حقُّ حين يضحك المستهزون.

وحقُّ حين تضطرب نفسك ويسألك الضعف: إلى متى؟

ليس صدق الوعد تابعاً لشعورك به. قد تكون خائفاً والوعد حق، وقد تكون وحيداً والوعد

حق، وقد يكون الواقع مناقضاً في ظاهره لكل بشارة، والوعد حق.

الإيمان أن تجعل يقينك بخبر الله أثبت من انفعالك أمام المشهد.

لا يدفعنك أهل الشك عن مقام الثبات

﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

الاستخفاف أن يحملوك على الخفة بعد الرسوخ، وعلى العجلة بعد الصبر، وعلى الاضطراب بعد الثبات. فالذين لا يوقنون لا يكتفون أحياناً بضيايعهم؛ يحاولون أن ينقلوا ارتباكهم إليك.

يسخرون من ثباتك لتستحي من يقينك.

يستبطنون الوعد لتستعجل طريقاً لم يأذن به الله.

يهولون قوة الباطل حتى تنسى قوة الحق.

يكررون أن الواقع لا يرحم، كأن رب الواقع غائب عنه.

والآية لا تقول: لا يناقشوك، أو لا يؤذوك؛ فقد يقع ذلك. وإنما تقول: لا تسمح لهم أن

يجعلوك خفيفاً، تحركك صيحاتهم، وتنتزعك استفزازاتهم من ميزانك.

المؤمن ليس ريشةً في عاصفة الأخبار.

لا يرتفع غروراً بكل نصر، ولا يسقط يأساً مع كل هزيمة. لأنه تعلم من السورة أن الأحوال تتغير، وأن القوة تتحول إلى ضعف، والضعف إلى قوة، وأن ما يملأ الدنيا اليوم قد يصير غداً أثراً يسار إليه للعبرة.

إن غير المؤمنين يعيشون أسرى اللحظة؛ فإذا علت الروم قالوا: لن تغلب، وإذا غلبت قالوا: لن تقوم. أما المؤمن فيرى الحركة دون أن يفقد الثابت، ويقرأ التحولات من داخل السنن، لا من داخل الانفعال.

وما أبدع التناسب بين مطلع السورة وختامها!

في أولها: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

وفي آخرها: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

بدأت بوعده تحققت علامته في التاريخ، وانتهت بوعده يطلب من القلب أن يعيش به إلى قيام الساعة. كأن انتصار الروم لم يكن غاية الخبر، بل شاهداً مبكراً يعلم المؤمنين كيف يصدقون سائر وعود الله.

لقد تحققت النبوءة في بضع سنين، وبقي معناها يتجدد في كل عصر:

لا تحكم على المستقبل من صورة الحاضر وحدها.

لا تمنح القوة العابرة صفة الخلود.

لا تجعل الهزيمة قدراً نهائياً.

لا تياس من أرض ماتت، ولا قلب قسا، ولا أمة ضعفت.

ولكن لا تنتظر التحول بلا عمل؛ فالسنن لا تجامل الكسالى. ازرع، وخذ بالأسباب، وأصلح الفساد، وأقم وجهك للدين، وأدِّ الحقوق، وابْتَغِ من فضل الله، ثم لا تعبد ما بذلت من أسباب؛ لأن الأمر لله من قبل ومن بعد.

الخاتمة

السورة التي تنتصر على الهزيمة داخلنا

بدأت سورة الروم بهزيمة وقعت في أطراف الأرض، لكنها لم تكن تريد أن تحدثنا عن هزيمة الروم وحدها. كانت تبحث عن موضع الهزيمة في داخل الإنسان: اللحظة التي يُغلب فيها يقينه أمام ظاهر الأحداث، وينكسر رجاؤه تحت وطأة الحاضر، ويظن أن ما يراه الآن هو الكلمة الأخيرة.

ولهذا راحت السورة تعيد بناء البصيرة.

أرتنا أن الحضارات، مهما بلغت قوتها، لا تخرج عن أمر الله.
وأن الإنسان، مهما اتسع علمه بظاهر الدنيا، يبقى جاهلاً إذا غفل عن الآخرة.
وأن الأرض لا تموت موتاً نهائياً، ففي داخل ترابها موعدٌ مع المطر.
وأن الإنسان الخارج من التراب يحمل في فطرته حنيناً إلى خالقه.
وأن الزواج ليس اجتماع جسدين، بل آيةٌ سكنٍ ومودة ورحمة.
وأن اختلاف الألسن والألوان ليس مبرراً للخصومة، بل معرضٌ لجمال القدرة.
وأن النوم بعثٌ يومي يدرّبنا على فهم البعث الأكبر.
وأن البرق يجمع الخوف والطمع، كما تجمع الأقدار الشدة والبشارة.
وأن الرزق قد يُبسط امتحاناً، ويُقدّر رحمةً وتربيةً.
وأن المال لا ينو بحجمه وحده، بل بما يحمله من بركةٍ وحق.
وأن فساد القلب، إذا ترك، ظهر في البر والبحر.
وأن الرياح قد تحمل بشائر الغيث قبل أن ترى العيون قطرةً واحدة.
وأن الضعف ليس عارضاً في الإنسان؛ بل هو بدايته ونهايته، وبين ضعفين تُختبر أخلاق القوة.

ثم جمعت هذه المعاني كلها في وصية الصبر.

ليس الصبر في سورة الروم انتظاراً بارداً على هامش الحياة، بل عبادةٌ واعية للزمن. أن تعمل اليوم وأنت تعلم أن الثمرة قد تأتي بعدك. أن تقاوم الباطل دون أن تصبح نسخةً من قسوته. أن تحفظ قلبك من اليأس حين يطول الليل، ومن الغرور حين يطلع الفجر.

إن السورة تريد أن تصنع مؤمناً لا تتخذه موازين القوى، ولا تستعبده تقلبات السوق، ولا يفرق قلبه اختلاف الناس، ولا يقتل رجاءه اصفرارُ الحقل بعد خضرته. مؤمناً يرى ما يراه الناس، لكنه لا يقف حيث يقفون.

يرى الهزيمة، ويرى وراءها سنن التحول.

ويرى القوة، ويرى في داخلها بذرة الضعف.

ويرى الموت، ويرى وراءه الدعوة التي سيخرج بها الناس من قبورهم.

ويرى السحاب، فيقرأ فيه رسالة الرحمة.

ويرى الشيب، فيسمع نداء الاستعداد.

ويرى الكون كله قائماً بأمر الله، فيستحي أن يكون الشيء الوحيد المضطرب بعيداً عن أمره.

سورة الروم ليست وعداً بأن المؤمن لن يمر بالهزيمة، بل ضمان ألا تكون الهزيمة هي الحقيقة النهائية ما دام قائماً بحق الإيمان. وليست وعداً بأن الأرض لن تجف، بل برهان على أن ربها قادر على إحيائها. وليست وعداً بأن القلب لن يضعف، بل دعوة إلى أن يستمد من وعد الله قوةً تتجاوز ضعفه.

إنها تنقل الإنسان من سؤالٍ قلبي: ماذا سيحدث؟

إلى حقيقة مطمئنة: من الذي بيده ما سيحدث؟

فإذا عرف أن الله الأمر من قبل ومن بعد، هدأ اضطرابه دون أن يتوقف عمله، وسكن قلبه دون أن يخذ سعيه، واستقام وجهه وسط الوجوه المتقلبة.

وحين تغلق السورة أبوابها، تبقى آيتها الأخيرة مفتوحة على كل زمن، وكل محنة، وكل قلب أوشك أن تستخفه العاصفة:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

فإن سألك الطريق: ما الذي يبقيك؟

فقل: وعد الله.

وإن سألتك الهزيمة: ما الذي يجعلك تنهض؟

فقل: الذي يحيي الأرض بعد موتها.

وإن سألك طول الليل: من أين جاءك اليقين بالفجر؟

فقل: من ربّ أخرج الحي من الميت، والنصر من الهزيمة، والغيث من السحاب، والقوة من الضعف.

ذلك هو سر سورة الروم:

أن العالم يتغير، والله لا يتغير.

وأن الموازين تتقلب، وأمره لا يخرج من يده.

وأن كل ما على الأرض عابر، أما وعده فحق.

فاصبر.